هذه سبيلي . . .

٣

﴿ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان : هذه سبيلي

٣

﴿ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾

تأليف : الدكتور مازن المبارك

عدد الصفحات : ١٢٨ صفحة

قياس الصفحة : ١٢ × ٢٠سم

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

التنضيد والإخراج : زياد ديب السروجي

ISBN : 978 - 9933 - 406 - 38 - 7

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار لا تعني بالضرورة تَبَنّي الأفكار الواردة فيها ؛ وهي تُعَبِّر عن آراء واجتهادات أصحابها .

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من:

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ــ شارع ٢٩ أيار ــ جادة كرجية حداد

هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ ــ ٢٣١٦٦٦٩

ص. ب ٤٩٢٦ سورية ــ فاكس ٢٣١٦١٩٦

الموقع : www.daralbashaer.net

البريد الإلكتروني: info@daralbashaer. net

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ = ٢٠١١م

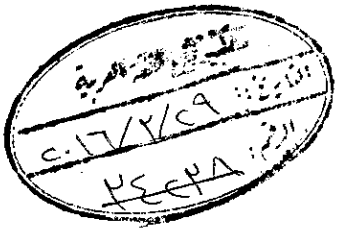

هذه سبيلي

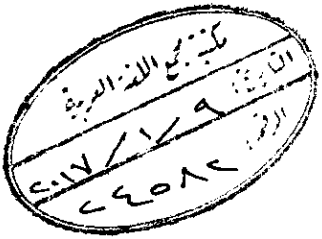

(٣)

وهذا لسان عربي مبين

د. مازن المبارك

دار البشائر

مقدمة

الحمد لله على ما أنعم ، والصلاة والسلام على رسوله الأكرم ، وبعد ،

فهذا هو الجزء الثالث من سلسلة « هذه سبيلي » بعد أن صدر الجزء الأول بعنوان ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة/ ٤٨] ، والجزء الثاني بعنوان « لا دين لمَن لا خُلق له ـ أخلاق دمشق » ونخص هذا الجزء الثالث بالحديث عنه اللغة العربية وعنوانه ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل/ ١٠٣]، وأنا أسأل الله سبحانه :

أن ينير ظلام حياتنا بنور هدايته .

وأن يملأ قلوبنا بأسرار محبته .

وأن يلهم العربيّ محبّة إخوته .

وأن يلقِّن العرب والمسلمين الوفاء للغة كتابه .

وأن يلهم العرب المحافظة على ما ورثوه من أجدادهم من مجد لغويّ .

لنا لغةٌ عن سالفِ المجدِ تُعربُ
فللّـــهِ مـــا أبقـــتْ مَعَـــدٌّ ويَعـــربُ

فاللغة العربية هي الإرث العربيّ التليد . وهي الكنز الذي ورثناه عن الأجداد .

وهي اللغة الأمّ التي يتمّ التواصل الفكري والاجتماعي بين أبناء العروبة بها ، هي التي لا يتمّ التواصل الفكري والثقافي والاجتماعي بين أقطار العرب إلا بها ، وهي وحدها التي لا يعي العربيّ تاريخه الماضي وواقعه الحاضر ، ويرسم خطواته نحو المستقبل إلا بها ، وهل يبقى الطفل على صلة بماضي أمته وتراثها إلا عن طريق لغته الأم ؟ وهل يرى العرب اليوم كم أصبحوا بعيدين عن هذه الأمّ ؟! هل يرى المسؤولون في البلاد العربيّة ، والمثقّفون ، ودعاة القوميّة ، والمنتمون إلى العروبة ، والتجمّعات المهنيّة كالاتّحادات والنقابات ، هل يرى كل هؤلاء وأولئك إلى أيّ مدى وصل تهميش لغتهم العربية ؟ وهل أدركوا أن السكوت عن ذلك يكاد يكون جرماً بحق الوطن ، وخيانة بحق القوميّة ؟! لأن العولمة ستبتلعهم بعد أن يضيعوا جميعاً بضياع لغتهم .

هل يلاحظ الناس في البلاد العربية عامة أن الخطط الحكومية تتّجه إلى الاقتصاد وإلى السياحة وإلى الكرة

وإلى الفنّ وإلى كل شيء ! إلا التخطيط لسياسة لغوية واعية حازمة ؟ وهل لاحظوا أن الزحف على (وجودهم) قد بدأ ؟! فهذه جامعة (عربية) تفصل أعداداً كبيرة جداً من أساتذة العربية والدراسات الإسلامية في عام واحد لتقليص ساعات اختصاصاتهم فيها ، وبذلك نصح الخبراء ! وجامعة أخرى تلغي قسم اللغة العربيّة ، ولكنها (حرصاً) على اللغة القوميّة تجعلها متطلَّباً جامعياً ، أيضاً كما نصح الخبراء !! والمختصّ وشبه المثقَّف يعلم أن العربية في أقسامها التخصصيّة ليست كالعربية في غيرها ، وأن الإخلاص للقوميّة كان يدعو إلى أن نجعل في كل كليّةٍ ـ أيّاً كان اختصاصها ـ قسماً للغة العربية يضع في كليته ما يناسب اختصاصها من المناهج والدراسات . وجامعة أخرى تلغي العربية كلّها ، بل تلغي كليّة الآداب أو الإنسانيات وتدمجها بكلية العلوم لتصبحا كلية واحدة تجمع العلوم والإنسانيات والآداب !! ولست أدري أيّ خبرة تربوية ـ غير خبرة الخبراء !! ـ تجمع الفيزياء مع النحو ، والجيولوجيا مع البلاغة ، وتترك العربيّة عائمة فوق النفط وعلوم البحار ؟!!

وقد اطلعت على منهاج للدبلوم الأدبي مدته سنتان

في قسم اللغة العربية في إحدى الكليات ، وأقسم أنني لم أجد في منهاج السنتين مقرراً واحداً للأدب العربي ! وكل ما فيه مما يحمل اسم (أدب) هو مقرّر الأدب المقارن !! فكيف يتخرج الطالب من الدراسات العليا باختصاص الأدب العربي وهو لم يدرس من هذا الأدب كلّه إلا بضع ساعات في الفصول الدراسية كلها ، وهي ساعات موزّعة على عصور الأدب كلها ؟!! ثم يمنح درجة الماجستير ثم الدكتوراه ، ثم يصبح أستاذاً جامعياً للأدب لا تزيد معرفته في أدب أمته على ما يعرفه الطالب الجامعي !!

هذه أمثلة من تصرّف مَن يَسْتَضِيْؤُون بنار المشركين ، أو يستنيرون بنار الخبراء المستوردين من بلاد الأعداء أو ممّن ربّاهم أعداؤنا وصنعوهم على أعينهم ، وزيّنوهم في أعيننا بالألقاب والشهادات . وأرسلوهم للتخريب والتدمير .

وعجيب أمر العرب ، وأمر المسؤولين في التربية أو التعليم خاصة ، كيف يرضون بتهميش اللغة العربية وعلومها ، ويأخذون في المناهج والخطط الدراسية بآراء مواطنين من دولٍ تكيد لنا ليلاً ونهاراً ، ويأخذون بآرائهم في أخصّ خصائص الأمة ، وهي الأمور التي تتعلق بتربية النشء وتعليمه ، ولا مانع أن يُستأنس

بالرأي غربيّاً أم شرقيّاً ، ولكن أخشى ما نخشاه أن نعدّه رأياً مُلزماً ، وأن نقعد من الخبير مقعد التلميذ من أستاذه !! وخاصة بعد أن انكشف الغطاء وظهر أن تلك الدول تسخّر مواطنيها من خبراء وخبرتهم ، و(مبشرين) ورسالتهم ، ومراكز بحوث ودراساتها ، لصالحها !

لقد أصبح العالم كلّه يدرك منزلة اللغة الأم، وقدْ عبّرت عن ذلك منظمة اليونسكو، فخصّصت يوماً عالمياً للّغة الأم ، وهو اليوم الحادي والعشرون من شهر شباط في كل عام، تنبيهاً للغافلين على أهميّة لغتهم الوطنية والقومية.

إذا تعرّضت اللغة القومية للخطر ـ وقد تعرّضت العربية لخطر التهميش والانحسار ـ فإن الأمة نفسها تتعرّض للخطر ، ولا بدّ من خطوة جادّة مخلصة وحاسمة تعلن التعبئة العامة ، وتشكّل لجنة من اللغويين والتربويين والإعلاميين والمسؤولين عن الثقافة ، ممّن يُعرفون بالجدّ والإخلاص ، لا من المزايدين وأصحاب الشعارات والمسايرين للتيّارات وركوب الأمواج واستغلال المناصب والمواسم رياء وظهوراً . وتكون مُهمة اللجنة وضع سياسة أو خطة لسياسة لغوية رشيدة لا يُنتهىٰ عندها بتوصيات يطبّل لها الإعلام ، ثم تُدفن في مكاتب المسؤولين عن التنفيذ في

الوزارات والمؤسسات !! بل يُنصّ في قرار تشكيلها على إلزام الجهات المعنيّة بتنفيذ ما يصدر عنها ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كانت تلك اللجنة مرتبطة برئاسة الدولة ، وكانت مؤيَّدة منها بسلطة تنفيذية حتى لا تحمل قراراتها اسم (توصيات) !

ولا بدّ أن تكون الخطة المرجوّة شاملة لكل ما يتصل بالجانب اللغوي ، بدءاً من رعاية لغة الطفل ، والاهتمام بجودة اكتسابه وجودة أدائه ، وصيانة اللغة في التداول والممارسة في المجتمع ، وفي جميع مراحل التعليم ، لتكون خطة محكمة شاملة لا تقوم على الترقيع في جانب من جوانب الحياة وترك غيره من جوانب حياتنا اللغوية ، لأن اللغة لا تحلّ مشكلتها مستقلةً عن حياتنا الاجتماعية في جميع جوانبها التربوية والثقافية والإعلامية والاجتماعية ، ثم إن للغة أبعادها في الوسطين السياسي والاقتصادي ، وهما يؤديان دوراً فاعلاً ومؤثراً في إحياء اللغة والإقبال عليها ، كما يكون دورهما فاعلاً ومؤثراً في تهميش اللغة والإعراض عنها[1] .

---

(١) انظر (اللغة والاقتصاد) في (خواطر مضيئة): ٢٥؛ وانظر « مع الهمّ اللغوي » في هذا الكتاب .

إن الذين يُعدّون الخطط التنموية يفتحون عيونهم على كل شيء إلا اللغة ، ولا بدّ أن يفتحوا لها باباً إلى خططهم التنموية ، لأنها هي وسيلة التواصل في كل تنمية ، وما قيمة التنمية كلها إذا أغمضنا أعيننا عن ربط ذلك بقوميّتنا وبأمّتنا وبمصلحتها العليا التي لا تتحقق إلا في ظلّ السيادة ، ولا سيادة لأمةٍ لا سيادة في وطنها للغتها ، فكيف إذا كان إتقان غير اللغة القومية هو الشرط لقبول المواطن عاملاً في دولته . . وكيف إذا كان طلب العمل في إحدى الجامعات العربية لا يقبل إلا باللغة الأجنبية بل بالإنكليزية حصراً ، ولو كان الطلب لأستاذ اللغة العربية ؟! لقد أعجبني قول اللغوي التونسي الدكتور عبد السلام المسدّي : « إن العولمة تحتّم علينا البحث عن الجسر الواصل بين التربية والتنمية ، وإن الصمت عن القضيّة اللغوية صمت آثم على مستوى الأنظمة وعلى مستوى النخب الفكرية » ، وما نداء الرئيس السوري الدكتور بشار الأسد في اجتماع القمة العربية في دمشق إلا دليل وعي ناضج إزاء هذه القضية اللغوية المصيرية .

لطالما ذهلت حين كنت أسمع بعض الرؤساء العرب

يتحدثون في محفل دولي بغير لسان الأمة التي ينتمون إليها والتي يمثلونها ! إن ذلك يمكن أن يقبل من كل المواطنين إلا من رئيس الدولة في محفل دولي ، لأن الرئيس رمز أمته . وهل رأينا أو سمعنا رئيس بلد غير عربي يتكلم في محفل عالمي بغير لغته القومية ؟ إنها مخالفة اختصّ بها بعض الرؤساء العرب ! ولعل مما يتصف به العرب عموماً في هذه الأيام أنهم لا ينفّذون ما يتفقون عليه ! فلقد اتفق الوزراء العرب غير مرَّة منذ سنة ١٩٤٦ على تعريب التعليم في جميع مراحله في أقطارهم ، وتتابعت مؤتمرات التعريب مدّة سبعين سنة وتتابعت التوصيات ، وهي ما زالت إلى اليوم توصيات ، وما زالت جامعاتهم ـ في غير سورية ـ تنتظر تنفيذ ما اتفقوا عليه ، ولم نر دولة مستقلّة غير عربية تدرّس في مدارسها وجامعاتها بغير لغتها . واتفق المندوبون عام ١٩٧٨ في مؤتمر عقد في بغداد على « الاستفادة من وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية السليمة على الجمهور ، واختيار المذيعين من المتمكنين من اللغة ومن جودة الإلقاء ، ليكونوا قدوة للمستمعين في الأنشطة والفعّاليات الإذاعية والإعلامية

والفنيّة » . وما زالت العربية عرجاء في معظم تلك الأنشطة الإعلامية في العواصم العربية !

إن اللغة الأم يرضعها الطفل مع حليب أمّه ، واللغة الأمّ لغة أمّته ، وإذا اختلفت لغة الأم عن لغة الأمّة كانت لغة الأمّة هي سمة الانتساب ودليل الانتماء . ولكم دهشت حين شكت إليّ سيدة إسبانية زوجها ، وهو زميل لي ، قائلة : « إنه يتحدّث إلى ابنهما بالإسبانية ، وأنا أطالبه دوماً أنه يحدّثه بالعربية . قلت لها : لماذا ؟ قالت : لأنه ابن رجل عربيّ ، ولأنه سيعيش في مجتمع عربي ، ولا أريد أن ينظر إليه الناس وكأنه أجنبي ، قلت لها : حيّاك الله ، ما أظن أن التي تتحدّث في أعماقك إلا سيّدة أندلسية » . إن هذه الأم أعقل من كثيرين ممن يقتلعون أبناءهم من بيئتهم في المدارس العربية ، ويفرحون حين يسمعونهم يتحدثون بألفاظ من لغة أجنبية !!

ولقد أعجبني قول الدكتورة بثينة شعبان[1] : « نحن نجد بلداناً عربية بكاملها وجامعات عربية لم تعد تدرّس

---

(١) المستشارة السياسية والإعلامية في القصر الجمهوري ، وكانت أستاذة للإنكليزية في جامعة دمشق .

بلغة الأم بل باللغة الإنكليزية أو الفرنسية حصراً دون دراسة عواقب هذا الأمر على أجيال المستقبل الذين يجب أن يكونوا متجذّرين بلغتهم وآدابهم وحضارتهم وثقافتهم ، وقادرين على استيعاب العلوم والفنون بلغتهم ، وعلى التفكير بلغتهم الأم كي نضمن أن يكون لهم موقع في هذا العالم عبر تعزيز الانتماء في المستقبل ، ومهما درسوا من لغة إنكليزية أو فرنسية فهم لن يكونوا متجذّرين بثقافة الآخر ، ولن يكونوا مقبولين من الآخر ، ولذلك فسوف يخسرون الجذر والفرع ، ويتحوّلون إلى مخلوقات هجينة ضائعة بين الحضارات ، لا تعرف إلى أي عالم تنتمي أو على أي أرض صلبة يمكن أن تقف[1] » .

إن اللغة بسيادتها في الوطن تعلن سيادة الأمة وسيادة الوطن . والسيادة هي دليل الاستقلال . ولو نظرنا في أوضاع اللغة العربية في الوطن العربي اليوم ، من مشرقه إلى مغربه ، ولو رأينا مكانة العربية في مدارس الوطن العربي وجامعاته ، وفيما قام على أرضه من مدارس وجامعات ، ورأينا مكانتها في المؤسسات والمطاعم

(١) صحيفة تشرين في ٤/ ٥/ ٢٠٠٩ .

والفنادق والشوارع والأسواق لعرفنا أن ثوب « الاستقلال » في كثير من بلداننا وأقطارنا يخفي تحته عقولاً مستعمَرة ، لا تعلي العربية ولا ترعاها ولا تمكّنها ، وقد تخجل بها ، أو تهمّشها ، أو تحاصرها .

لقد كان لسان العربي صورة صادقة لصاحبه ، تريك صفحة قلبه ، وتحكي حريّة فكره ، وعزّة أمّته ، أمّا ألسنة عرب اليوم فأكثرها يخفي وراءه عقولاً مهاجرة ، وقلوباً فارغة ، وعواطف منصرفة ، وأنساباً تائهة !

إن كثيرين من عرب اليوم خطفتهم أنوار حضارات أخرى من واقع أمّتهم المتخلّف ، فبهرت عقولهم ، ولفتتهم عن حضارة أمتهم ؛ وجدت قلوبهم فارغة فملأتها انبهاراً به ، ووجدت عواطفهم جامدة فحرّكتها ووجّهتها نحوها ، ووجدت انتماءهم ضعيفاً فشدَّتهم . . . إنهم اليوم أشباه عرب ، يشبهون العرب ظاهراً وادّعاءً ، ويختلفون عنهم بعقولهم وقلوبهم ، بأفكارهم وعواطفهم ، فأردت أن أضع هذا الكتاب لأذكّر به من كان حاله كذلك بحقيقة اللغة لعلّها تعيده إلى أمته رحِماً ونسباً ، وعقلاً مفكراً ، وقلباً محبّاً ،

وتعيده إلى حضن أمّه وأحضان أمّته . . تعيده إلى (لغته) ، وإن اللغة عندي كلمة تختزل الشخصية بأصالتها وتوازنها ، والوطن بأطيافه وطوائفه ، والقوميّة بنسبها وولائها ، والعقيدة بروحها وعزّتها .

تلك هي اللغة التي ترى فيها الأمة الطريق إلى وحدتها وسيادتها ، وعودتها إلى أداء دورها في بناء الحضارة الإنسانية . وما الكلمات التي كتبتها في هذا الكتاب عن اللغة العربية إلا جسور نحو الوعي اللغوي ، تفتح عيون القرّاء على حقيقة اللغة ومكانتها وأثرها في حياة الفرد ، حياة المواطن وحياة الأمة .

إن أولى الخطوات نحو ترسيخ الهُويَّة التي نستعيد بها وعلى ضوئها طريقنا إلى صنع الحضارة في العالم المعاصر ، على نحو ما صنع أسلافنا في ماضي تاريخنا ، هي أن نعمق الوعي بحقيقة اللغة وأثرها في بناء الشخصيّة الإنسانية المتميّزة ، ووعي اللغة أول الخطوات نحو وعي الأسس الفكرية التي نستمدّها من المرجعيّات الأصيلة والثابتة لأمتنا .

أن نعي الفكر ، وأن نعي الذّات ، يعني أن نعي اللغة التي هي عماد الفكر وصنوه ، وأن نعي تاريخنا

الحضاري الذي نعم العالم كلّه بظلّه وبآثاره ، حتى كان الأجنبي يفخر بكلمات يعرفها من العربية أكثر مما يفخر اليوم بعض العرب بما يتقنون من لغة أجنبية !

إن من أهمّ ما يجب أن نقوم به اليوم في هذه السبيل أن ننشر الوعي اللغوي ، وأن ندعو العرب إلى إعزاز لغتهم ، ردّاً على ما يقوم بنشره وادّعائه المُرجفون والمشكِّكون والمرتدّون ، والأتباع المبهورون بحضارة الغرب ، والمأخوذون بدعاية العولمة ومظاهرها الماديّة ، والناظرون إلى كل ذلك بصمت واستحسان ، والظانّون بالأمّة ظنّ السوء .

إن الوعي اللغوي والفكري هو الذي يعيد إلى العربيّ ثقته بلسانه وبنفسه وبأمّته وبمستقبله ، ويغريه بالعودة إلى أداء دوره في صنع الحضارة من جديد إيماناً بقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١٤٠] ، ولكل أيام دولة ورجال ، ولكل حضارة شروق وغروب ، تلك هي سنة الله في خلقه ، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب/ ٦٢]، والحمد لله رب العالمين .

مازن المبارك

رسالة من اللغة العربية إلى أبنائها

أبنائي العرب الأعزاء .

لست أدري ! أأكتب إلى من لا يزال يذكرني منكم فأشكره ، أم إلى من نسيني فأذكّره ؟!

أنا إرث زهد فيه الكثيرون ، وغفل عنه الكثيرون .

أعدائي كادوا ، وما زالوا يكيدون لي ، ولقد لقيت من كيدهم عنتاً ، ولكني لست أبالي بهم إذا كان أبنائي معي . ولكن الذي يؤلمني ، أيها الأحبة ، عقوق أبنائي وجحود أقربائي !

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً
على المرء من وقْع الحسام المهنَّد

أيها الأبناء ، أيها العرب .

سامحكم الله ، فقد نمتم طويلاً ، وهجرتموني كثيراً ، وجفاني أكثركم جفاء قاسياً وأليماً .

ناموا ما نمتم ، واهجروني ما شئتم ، فلسوف تأتي يوماً صحوةٌ تعيدكم إلى أحضاني ؛ فأنا أمّكم ، أنا

تاريخكم ، أنا لغة قرآنكم ، بحروفي خاطب الله البشر ، وبكلماتي حدّث نبيّكم .

يا أبنائي الأعزاء ، هبوني رسالة ورثها أحدكم عن أبيه وجدّه ، أو زجاجة عطر ورثها عن أمّه . ألا ينظر إلى ذكرى أبيه فيضمّها ، ألا يحنّ إلى رائحة أمّه فيشمّها ؟ فكيف وأنا أمّ أمّكم ، وأم أمتكم ، وتاج قوميّتكم ، وعماد ثقافتكم .

أيها الأبناء ، أيها الأكباد :

ما عرفت أم أولادها كما عرفتكم ، وما عامل أولاد أمّهم كما عاملتموني !

لقد وأدتموني وأنا حيّة ، وأثكلتموني وأنتم أحياء !

أنا الموؤودة الحيّة ، وأنا الثكلى وأولادي أحياء !

رحم الله أجدادكم فلقد ضنّوا بي ، فأشبعوني صيانة ورعاية ، ورفعوني شعاراً للعزّة والكرامة ، وتنافسوا في الوصول إلى جواهري ، وكسوني أحلى ما جادت به مهجهم وقرائحهم من روائع البيان وصور الجمال . . . ثم جئتم ، ليتكم . . لا لن أقولها ، وليتني . . لا لن أقولها . . فأنتم أعزّ عليّ منّي عليكم ، ثم جئتم فضننتم عليّ بألسنتكم ، وفرّطتم بي وبكرامتي . . .

نـافستمـونـي بضـرائـر وعَـلات مـن لغـات أجنبيّـة لا أنساب لها ، وعاميّات عرجاء شوهاء . . .

لم تفرّقوا بين الغثّ والسمين ، ولا بين السمّ والدَّسم ، وما كان أجدادكم ليخدعهم العدوّ يأتيهم بثياب الصديق .

أيها الأبناء ؛ أيها الغافلون .

سامحكم الله ، فأنا أعرف أنكم ما تركتموني عن قِلًى ، ولا هجرتموني عن كره ، ولكن عن جهل بحقيقتي ، وتفريط بنسبي . . إنكم كذلك البدويّ الجلف الذي وجد في إرث أبيه ماسة كبيرة فظنها حجراً فرماها ! ووجد صرّة من تِبر ، فظنها تراباً ورماداً فذراها . . .

أيّها الأبناء العرب .

هل لعروبتكم لسان غيري ؟ أيقبل عربي أن تكون أمه وأمته بلا لسان ؟

أيها العرب .

مَنْ قَبِلَ منكم أن تكون أمه خرساء ، وأن تكون أمته بغير لساني ، فليس عربياً فاسألوه عن نسبه !

أيها الأبناء الأحبة .

أنا لسانكم ، ولسان آبائكم ، وحديث تاريخكم ، وشريان حياتكم .

أنا حكاية ماضيكم ، وخطاب حاضركم ، وأمل مستقبلكم .

أنا ضمان بقائكم ، أنا الأرض الصلبة التي تحملكم إن ضاعت أرضكم .

إن لم يكن بينكم فرسان يحفظون الأرض ، فحروفي فرسانكم ، وكلماتي سلاحكم .

إن ضَعُفَ قادتكم عن توحيدكم وجمع شملكم ، فأنا الأم الجامعة ، وأنا مفتاح الوحدة .

أيها العرب : لساني يجمعكم ، وحضني يلمّكم .

لا تسمعوا للطاعنين والمتَّهِمين . . . لا تسمعوا لأعداء العرب . . ولا تسمعوا للمغفَّلين من العرب ، فأنا ما ضعفت ولا عجزت إلا يوم ضعفتم وعجزتم . . . وما كان أشدّ عليَّ من أمرين ؛ إعراضكم عني وإبعادي عن العلوم ! لقد خدعوكم يوم زيَّنوا لكم أن تركبوا إلى العلوم غير مراكبي ، فركبتم إليها بألسنتهم ، وتفرّقت بكم السبل ؛ فكان لكل طائفةٍ أو بعثة منكم لسان بحسب البلد الذي درسوا فيه !! ولو خضتم بحار العلوم بلساني

لاجتمعتم على لسان واحد ، هو اللسان الذي به تَفهمون وبه تُفهمون . . فيالضياعكم وضياعي يوم اتخذتم من عدوّكم دليلاً . . وسلكتم إلى العلوم غير طريقي سبيلاً .

أيها الأبناء الأحباب .

أنسيتم أن العصور أيّام حياتي ، وأن التاريخ من حكاياتي ، وأن الحضارة قصتها كلماتي ؟! أنا منذ كنت ما تغيّرت ، ولا عرفت الضعف والوهن إلا يوم استولت عليكم غفلة باعدت بيني وبينكم ، واستبدل بعضكم بي ألسناً كالضرائر يزاحمنني من أجنبيّات وعاميّات . . وزاغت منهم الأبصار فلم يُفرّقوا بين الدخيل والأصيل .

أيها الأبناء .

لست حاقدة عليكم ، فقلب الأم لا يحمل حقداً ، ولكني مشفقة عليكم ، خائفة على مستقبلكم ، قلقة مذعورة من أن يصبح أبناؤكم ضائعين بين مفارق الأمم ، تائهين بين الأنساب ! لا نسب يؤويهم ، هجناء لا أحد يقبلهم أو يضمّهم إليه !

آه ، أيها الأحباب ، كم أتألّم حين أتذكّر أن أجدادكم كانوا يرسلون أبناءهم إلى الصحراء ليرضعوا فصاحتي ويسمعوا بلاغتي ، ويتقنوا موسيقا حروفي من

الأعراب الذين طهُرت ألسنتهم فلم تعرف غير حروفي ، ولم تطرب لغير ألحاني ، ثم أراكم اليوم وقد تنافس الكثيرون منكم وممّن علا منكم بالمنصب أو بالمال في إرسال أبنائهم في العواصم والمدن المسمَّاة عربية إلى مدارس الأعاجم ليرطنوا بألسنتهم نأياً بهم عن لساني وحروفي !! ألا ليتهم يتقنون اللغتين ويحسنون اللسانين . . ألا ليت الأب الغافل لا يمتلئ فخراً أو اعتزازاً حين يرى طفله الصغير يعرف كلمات أعجمية تبشّر بمستقبله البعيد عني وعن ثقافتي !!

ليت الأب الغافل يدرك أني لست مجرّد حروف وكلمات يعرف المتكلّم معناها ، ولكني قوالب فكرية وأساليب نفسيّة ، تطوي المتكلم فيها وتصوغه بصياغة أمته الناطقة بلسانه . . ففي أيّ قالب يصنع الأب ابنه ؟؟ وعلى طريق أي ثقافة يدلّه ويسيّره ويغرس في نفسه لها الولاء والحبّ ؟!

إن اللغة ـ أيها الأبناء العرب ـ تصنع الناطق بها على هواها ، فلا تتركوا أولادكم للذين يسرقون عقولهم ويبعدونهم عني حبّاً وولاء وثقافة ، ويصنعونهم في مدارسهم وجامعاتهم كما يحبون ، ويخططون لهم

ولكم ولبلادكم ما يشتهون ، فالذين يسرقون عقول أبنائكم ونفوسهم أخطر ممن يسرقون منكم الأرض والنفط .

أيها الأبناء .

تقولون : إنني أنا اللغة وسيلة تدركون بها غيرها ، وهل نسيتم أنني أنا نفسي ثقافة قبل أن أكون طريقاً إلى غيري ! فلا تتركوا أبناءكم يفارقون حضني إلى أحضان الغرباء ، ويُحرمون من حليبي الطاهر ليرضعوا من حليب الهجناء .

أيها الأبناء ، أيها العرب :

أنا تاريخكم فلا تنسوه ، أنا رَحِمكم فلا تقطعوه ، أنا نسبكم فلا تفقدوه ، أنا ذاكرتكم فلا تضيّعوها ، أنا نور حضارتكم فلا تطفئوه ، أنا صوت ربّكم فاسمعوه ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل/١٠٣] ، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء/١٩٣ ـ ١٩٥] .

أيها الأعزاء .

وسع صدري كتاب الله ، ووسعت كلماتي علوم الدنيا من طب وعلوم وفلسفة وآداب ، يوم كان منكم

الأطباء والعلماء والفلاسفة والأدباء ، ودارت الأيام وتقاعست هممكم ، وكلّت ألسنتكم ، وجفّت قرائحكم ، فكسفت شمس حضارتكم ، وغبتم عن ميادين العلم فغيَّبتموني معكم ، ألم تسمعوني أنشد على لسان ابني سليمان[1] :

عمري هو التاريخ ـ لا تسلوا
عن مولدي ـ في فجره اقترنا
ضعتم عن الدنيا وضيَّعني
عنكم سواد الليل، مرَّ بنا
هو عابرٌ، لُمُّوا شتاتكم
وتشبَّثوا بروائعي وطنا
عودوا إلى صدري أوحّدكم
أنا أمّكم، أمّ اللغات أنا
وسلوا الحضارة، أيُّ ساطعةٍ
في الفكر لم أصلُحْ لها سكنا؟!

أيها الأبناء ، أيها الأعزاء !

هل أنتم عرب حقاً ؟! هل أنتم أبنائي حقّاً ؟!

---

(١) هو الشاعر سليمان العيسى .

ما أراكم اليوم عرباً إلا بأسمائكم ! إني أراكم تعيشون في غربة عن عروبتكم ، إنكم اليوم في غربة نفسية أغرقتكم بها حياةٌ جديدة طارئة لم تعرف من الحياة العربية غير اسمها . .

لقد اختفت في حياة عروبتكم مُثُلها وقيَمُها في الفكر والأخلاق .

ألا تذكرون ما كان يتغنّىٰ به آباؤكم من عشق الصدق والحريّة وحبّ التضحية والفداء . . وما يتمثلون به من الشهامة والنخوة والعزة والكبرياء ؟

أيها الأبناء .

إن كنتم اليوم في غربة ، فأنا اليوم في غربة أشدّ وأقسى ؛ فما عرف العالم أمة تحتفي بلغتها احتفاء العرب ، ولا عرف شعباً يقدّس لغته تقديس العرب ؛

كان العرب لا يفهمون عن عربي إذا انحرف لسانه أو لحن .

كان العرب يؤمنون أن المرء بأصغريه قلبه ولسانه .

كان العرب يقيسون المرء بلسانه .

وصار العرب اليوم ـ أيها الأبناء العرب ! ـ يعيش

العربي بينهم غريب الوجه واليد واللسان ،

فلا المظهر عربيّ ، ولا الزيّ عربي ، ولا السلوك عربيّ، ولا الخُلق عربيّ، ولا الدينار عربيّ، ولا اللسان عربيّ . . أأقول ـ يا أبنائي ـ ولا العربي عربيّ .

أيها العرب ، أنا لغتكم أشتكي اليوم الغربة في دياري ، أشكو المهانة بين الضرائر في داري .

أيها الأبناء :

إن شرّ الأبناء من دعاه العجز والتقصير إلى العقوق . .

وإن خير الأبناء من دعاه الوفاء إلى البرّ ورعاية الحقوق .

فإن كنتم عاجزين فبعضُ الوفاء لأمٍّ يؤرّقها الشوق والحنين .

التوقيع

اللغة العربية

أمُّ كلِّ مَن قال : أنا عربيّ

وصلاةُ كلِّ مَن قال : أنا مسلم

اللغة العربية تاريخ وحضارة

لم يكن العرب سبّاقين إلى دراسة اللغة ، ولم تكن لغتهم التي يفخرون بها موضع نظر أو درس قبل الإسلام . . لقد سبقهم إلى دراسة اللغة وقواعدها اليونان والصين والهنود ، وكانت لكل منهم حوافزهم التي دفعتهم إلى العناية باللغة دراسة وتدويناً وشرحاً للألفاظ . وكان من أبرز تلك الحوافز حاجتهم إلى شرح كتبهم الدينيّة أو شعرهم الحماسي ، وأما العرب فما شعروا بحاجتهم إلى البحث اللغوي إلا حين أحسّوا الحاجة إلى صيانة القرآن من اللحن ، ثم إلى معرفة ألفاظه وتفسير معانيه مستعينين بما وجد منها ، واستعمل في كلام الجاهليين ، وهم أهل العصر الذي أنزل فيه القرآن .

لقد كان القرآن محوراً لنشاط علمي ظهر في العلوم الإسلامية ثم في العلوم العربية . قال السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء : « إنه منذ منتصف القرن الثاني الهجري بدأ علماء المسلمين يسجّلون الحديث النبوي ،

ويؤلفون في الفقه الإسلامي والتفسير القرآني . وبعد أن تمّ تدوين هذه العلوم اتّجه العلماء جهة أخرى نحو تسجيل العلوم غير الشرعية ومن بينها اللغة والنحو » . على أن ذلك لا يعني أنه لم تقم قبل ذلك محاولات فردية كانت نواة لكثير من المدوَّنات التي ظهرت بعد ذلك ، فلقد كان ابن عبّاس ، حَبرُ الأمة ، يأتيه الناس للحلال والحرام وللعربية والأنساب والشعر . يسألونه في الفقه واللغة والتاريخ ووقائع العرب ، ويسألونه في القرآن والتأويل ، وهو الذي توفي سنة ٦٨هـ .

وكذلك كان أبو الأسود الدؤلي ، المتوفَّى أيضاً سنة ٦٨هـ يأتيه الناس للعربيّة ويأخذون عنه ، وبرع عنده منهم تلامذة مشهورون .

أما ابن عباس فإن لم تكن نسبة كتاب « غريب القرآن » ثابتة إليه فقد ثبتت نسبة المسائل الأزرقيّة التي تفسّر كلمات من كتاب الله تعالى على أحدث مناهج التفسير .

وأما أبو الأسود فكانت خطوته في شكل المصحف على بساطتها تحقق الغاية التي سعى النحويون فيما بعد إليها ، والتي هي تجنّب الوقوع في اللحن .

وأما الحديث في النحو والتأليف فيه فلا شك أنه تابع للعمل اللغوي ومتأخِّر عنه ؛ ويشرح ذلك عبد اللطيف البغدادي بقوله : « اعلم أن اللغويّ شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعدّاه ، وأما النحوي فشأنه أن يتصرّف فيما نقله اللغوي ويقيس عليه ، ومثالهما المحدِّث والفقيه ؛ فشأن المحدِّث نقل الحديث برّمته ، ثم إن الفقيه يتلقّاه ويتصرّف فيه ويبسطُ فيه علله ويقيسُ عليه الأشباه والأمثال » .

وقد مرّ جمع اللغة بمراحل إذ كان اللغويّون يسجّلون ما يسمعونه دون ترتيب أو نظام أو منهج ، ثم كان منهم من جمع ورتّب ما جمعه على وفق الموضوعات، فكانت لهم رسائل في الإبل والخيل والكَرْم والأصنام والنبات والشجر ، وكانت لهم رسائل في الشعر يجمعونه ويشرحونه أو يفسّرون غريبه . واستمرّت جهود اللغويين حتى انتهت بالعمل المعجميّ الذي كان رائدَه الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع معجم « العين » .

وأما النحو فلن أتحدّث عن أوليّته والتدرّج في نشأته ؛ فقد بسطت القول في ذلك في كتابي : « النحو العربي » ، ورددت مزاعم الذين استعظموا على العرب

أن يظهر بينهم في ذلك الزمن المبكِّر كتاب يقولون : إنه ضخم، وإنه ظهر فجأة، ولا نرى قبله ما يصحّ أن يكون نواة تبيّن ما هو سنة طبيعية من نشوء وارتقاء ، وكل ما ذكروه من هذا القبيل لا يشفي غليلاً .

والحق أن هذا القول الذي طلع علينا به صاحب كتاب « ضحى الإسلام » ليس إلا واحداً من أقوال كثيرة وأحكام عجيبة دسّها في كتابه ، وهي كلها تدلّ على أنه لم يطّلع ، وما نظن هذا ، أو أنه اطّلع ولم يرد أن يقتنع ؛ لأن الذي يعود إلى نشأة النحو يرى أن كتاب سيبويه لم يظهر فجأة كما يزعم أحمد أمين ، وأنه كان بين سيبويه الذي توفي سنة ١٨٠هـ وبين أبي الأسود الذي توفي سنة ٦٨هـ مراحل من العمل في العربية معروفة ومعروف أصحابها ، وأن كتاب سيبويه كان المرحلة السادسة من تلك المراحل التي تؤرخ لأوليّة النحو ، ولكن لمن كان يحب أن يطّلع وأن يشتفي غليله .

ومهما يُقل في اللغة أو في النحو ، أهي ثنائية أم ثلاثية الأصول ؟ أهي معربة أم غير معربة ، فإن اللغة التي وصلت إلينا وعرفناها هي لغة الأدب الجاهلي،

وهي اللغة التي نزل بها القرآن ، وهي اللغة التي استمرّت على اختلاف أساليبها حتى يومنا . وأما النحو فهو النظام الذي حفظ بقاء اللغة ضمن إطار منضبط حال دون انسياحها وتفلّتها .

يقول عباس حسن : « أيّنا لا تبهره تلك العناية المعجزة التي بذلها الأولون في جمع أصول اللغة ولمّ شتاتها ، واستنباط أحكامها العامة الفرعية ، وحياطتها بسياج منيع من اليقظة الواعية والحيطة الوافية » . وعدّ النحوَ العربيَّ بعض المستشرقين أثراً رائعاً من آثار العقل العربي يحق للعرب أن يفخروا به . وقال يوهان فك : « لقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل وتضحية جديرة بالإعجاب بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد » .

والعجيب أن تسمع من العلماء العرب الذين عايشوا النحو عمرَهم كالأستاذ عباس حسن الذي ألّف كتاب « النحو الوافي » وهو أكبر موسوعة نحوية في هذا العصر ، وأن تسمع من بعض المستشرقين ذلك الثناء

العطر على جهود اللغويين ودقة النحويين ويقظتهم وكمال عملهم ، ثم تسمع من بعض العرب اتهاماً للغة بالعجز والقصور ، وطعناً في النحو ، ومطالبة بالتحلّل من بعض قواعده وأحكامه . على أني لا أرى شيئاً يعلو على النقد ، وليس الكلام في ذلك من المحرّمات ، ولكن شتان ما بين نقد يرمي إلى الإصلاح ، ويدلّ على معرفة كاتبه في العلم الذي يكتب فيه ، ونقدٍ مراد منه الهدم والتنفير ، وفي أسلوب كاتبه ولغته ما يفضح جهله في العلم الذي يكتب فيه !

وأرى أنه لو شكر كل قوم ربَّهم على ما هداهم إليه من لغة يعبّرون بها عن أغراضهم وضمائرهم لكان أَولى للعرب ثم أولى أن يكونوا أكثر الأقوام شكراً لهذه النعمة وتقديراً للمنعم ؛ لأنه سبحانه أكرمهم بها فكانت لغتَهم كما هي لغة كتابه ولسان وحيه ، ولأنها في منزلة لم يحظ بها غيرها مما سخّره الله للإنسان . لقد ذكر سبحانه وتعالى كثيراً من مخلوقاته التي سخّرها للإنسان فقال : إنه سخّر الشمس والقمر ، وسخّر الأنهار ، وسخر الليل والنهار ، وسخّر البحر ، وسخر ما في السموات والأرض . . . وأما اللسان الذي هو اللغة فقد ذكره غير

مرّة ، ووصفه باللسان العربيّ المبين ، ثم إني رأيته يظهر في موضع من آيات البيان الإلهي المعجز ظهوراً يلفت النظر إلى رفعة منزلته . فلقد ورد ذكر البيان في سورة متميّزة من بين سور القرآن بصفات لم تتكرّر في غيرها .

إنها سورة « الرحمٰن » وهي السورة الموصوفة بأنها « عروس القرآن » وهي السورة الوحيدة في القرآن التي تبدأ باسم من أسماء الله الحسنى دون أن يتقدّم عليه ذكر شيء قبله ، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي يتكرّر فيها لفت نظر الثَّقَلين الإنس والجنّ إلى نعم الله وآلائه إحدى وثلاثين مرّة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، وقد يكون الخطاب الإلهي موجَّهاً إلى المؤمنين والمشركين ؛ إذ إنَّ المشركين هم الذين اتّهموا محمداً ﷺ بأنه إنما يعلّمه بَشر ، فجاء ردّه تعالى عليهم : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ [الرحمن/ ١ ـ ٢] أي علّمه القرآن ، ولكنه حذف المفعول الأول للعلم به . ثم انظر إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ خبراً عن ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ثم إلى قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ خبراً ثانياً ، ثم إلى قوله : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ خبراً ثالثاً . دون

أن يستعمل العطف إذ لم يقل « وعلّمه البيان » ليكون الكلام خبراً ثالثاً معادلاً للخبر الثاني الذي هو خَلق الإنسان . أفرأيت المنّة في تعليم البيان في عروس القرآن كيف جاء معادلاً لمنّة خلق الإنسان ، ومنّة تعليم القرآن ؟! فإذا أضفنا إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم/ ٢٢] ، وأضفنا أن أول الوحي الإلهي كان كلمة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ [العلق/ ١] أدركنا أن الله سبحانه وتعالى قد وضع الإنسان في أول طريق الحضارة ، إذ لولا اللغة لما كان اجتماع بشريّ ولا مجتمعات ، ولولا التجمّع لما كان إنتاج ولا كان إبداع ، ولولا اللغة لكان على كل جيل أن يبدأ من الصفر ، إذ باللغة وحدها كان الجيل يرث علم الجيل السابق ، ويرث خبرته ونتائج تجاربه في كل مجال ، ثم يتابع البناء إنتاجاً وإبداعاً حتى كان للبشرية من توالي الإرث تقدّمٌ وحضارة .

على أنه ما من أمة في العالم تقدّمت بلغة غيرها ! لذلك كانت الأمم كافة تتمسّك بلغاتها القومية وتعلّم أبناءها بها :

فالدول الأوروبية كلها تعلم وتدرّس في كل مراحل

التعليم بلغاتها .

وروسيا تعلّم كلُّ جمهورية فيها بلغتها المحليّة في المرحلة الأولى ، ثم يصبح التعليم في كل الجمهوريات باللغة الروسية المشتركة .

وأندونيسيا تعلّم سنتين باللغات المحلّية ، ثم يصبح التعليم في كل البلاد بالأندونيسية ، وكل من تركيا ويوغسلافيا تعلّم بلغتها .

وكذلك الصين على سعتها وكثرة سكانها وصعوبة لغتها لا تعلّم إلا بالصينية ، وأما اليابان حيث يحتاج الطالب في المرحلة الابتدائية إلى معرفة ٨٨١ حرفاً ويضاف إليها ٤٠٠ حرف في المرحلة المتوسّطة فإنهم يـرون أن التمسّـك بلغتهـم هـو تمسّـك بتـاريخهـم ووجودهم !

والعبرية التي كان الكثيرون يعدّونها لغة ميّتة استطاع أبناؤها إحياءها وجعلها لغة التعليم في مدارسهم وجامعاتهم .

وكذلك راحت كل من الباكستان والهند وبنغلاديش وبورما وسيرالانكا تتخلى عن اللغة الإنكليزية لتنتقل كل منها إلى لغتها القومية من أورديّة وهندوسية وبنغالية

وبورمية وتاميليّة .

وهكذا لم يبق في العالم أحد يدرّس في وطنه بغير لغته إلا العرب !! وإلا الشعوب المستعمَرة في أفريقيا السوداء ، مما يجعلنا نتساءل كيف بقيت تلك الشعوب متخلّفة مع أنها تعلّم أبناءها باللغة الأجنبية ؛ الفرنسية أو الإنكليزية ؟ وكيف لم تشفع لها تلك اللغة للتقدم في العلم إذا كان ذلك التقدّم مرهوناً عند العرب ببقاء التعليم العالي باللغة الأجنبية ؟!

إذا كان الإنسان هو الأساس في كل نهضة ، وإذا كان الإنسان هو المقصود في كل تخطيط اقتصادي أو تنمويّ ـ كما نسمع في وطننا العربي ـ فإن اللغة هي أداة التقدّم وسلّم الحضارة وركيزة البناء ، ولا تقدّم للشعوب بغير لغتها ، لأن العلم إذا بقي محبوساً عند مبدعيه ومخترعيه جعلوك تابعاً لهم ، يعطونك منه ما يريدون ، ويحجبون عنك ما يريدون ، والعصر الحاضر وما يسمحون به لنا من سلاح أو من قطع تبديل ، أو من اختصاصات لبعثاتنا العلمية وحتى الطبيّة أكبر دليل على ما نقول .

وإذا أردنا أن نعرف أثر اللغة في الحضارة الإنسانية

فحسبنا أن نتخيَّل الإنسان بلا لغة ! لنتصورَه فرداً منفرداً معزولاً منقطعاً عن العالم ، بل هو عاجز عن محادثة نفسه لأنه باللغة يفكّر كما أنه بها يعبِّر ، فباللغة الأم تتعلّم الأقوام ، وبها يبدع أبناؤها ، وبها تدخل باب العلم وتسير في تقدّم ورقيّ وحضارة ، كما رأينا لدى الأمم التي تعلّم بلغاتها ، وكما رأينا عكس ذلك لدى الشعوب الأفريقية التي بقيت عالة على اللغة الأجنبية .

ولعلّ تاريخ لغتنا شاهد على ما نقول ، فلقد كانت لغتنا مرآة للعقلية العربية ولفكر العربي وسلوكه ؛ لقد رأينا في أدب الجاهلية حياة العرب في ذلك العصر ، ورأينا ما كان عندهم من سلوك وعادات وقيم ، وعرفنا من خلال أدبهم حياتهم اللاهية وحياتهم الجادّة في أيّامهم ووقائعهم ، وعرفنا مآثرهم وما يحبونه فيتمادحون به ، وما يكرهونه فيتهاجون به . . ثم رأيناهم وقد ظهر الإسلام فخاطبهم بلسانهم ودعاهم بلسان وحيه ، فتفتّحت قلوب ، واطمأنت نفوس ، وتهذّبت شمائل ، وأصبحوا أصحاب دعوة وحملة رسالة ، وخرجوا مبشّرين هادين ، ونشطت فيما بينهم حركة علمية بدأت تدور حول القرآن وكلماته ، ثم

نشطت فقهاً وتشريعاً ، ثم عمَّت فكانت لغة ونحواً وبلاغة وإعجازاً . . . ثم لم يلبثوا أن استوعبوا علوم غيرهم وصاروا أصحاب حضارة عمّ خيرها عالمهم ، وأصحاب ثقافة فيها الأدب والعقيدة والفلسفة والعلم والحكمة . .

وإذا كان ذلك كلُّه لم يستمرّ بتأثير عوامل داخلية وخارجية ، وإذا كانت تلك العصور تلتها عصور تدهور وتمزّق فقد كانت العربية معرَّضة للضياع والاضمحلال لولا القرآن الذي حفظها ، والثقافةُ التي كانت هي وعاءها ، والخصائصُ الذاتيّة التي تتصف هي نفسها بها ، والتي تساعد على النموّ والبقاء والاستمرار .

وهكذا يشهد التاريخ أننا تقدّمنا حين نقلنا العلوم إلى العربية ، وكانت لنا حضارة استظلّ العالم بها ، ونعم بخيراتها ، ثم تبدّلت بأمتنا الحال ، وتخلّينا عن لغتنا فتخلّفنا ، وبقي التخلّف ما دام غيرنا يحكمنا إنْ في المغرب العربي أو في مشرقه ، ولكن ما إنْ أطلّ عصر النهضة حتى بدأت اللغة تنتعش ، وظهر كتّاب وشعراء ذكّرونا بأيام عزّة اللغة وإشراقها ، وبدأت حركة الإحياء لتراثها .

ولكن ذلك لم يطل ، لأن تيّار التغريب كان أقوى وحبّ التقليد كان أغلب ، ولم نفد مما عرفناه من علم النفس ولا من علم الاجتماع في أثر اللغة الأم في بناء شخصية الفرد ، ومن أثرها في فكره ، وفي طبعها إيّاه بطابع قومه ، وتوجيهها لسلوكه ، ورحم الله عمر بن الخطاب الذي أدرك ذلك فقال : « علِّموا العربيّة فإنها تعلّم المروءة » ، ولم نفد من لغتنا في جعلها رابطة قوميّة لشعب واحد يتكلّم بها في أقطار مختلفة وتحت أسماء سياسية مختلفة !

إن اللغة العربية تحكي حالة العرب قوةً وضعفاً ، وازدهاراً وانحساراً ، كما تحكي مزاحمتُها بالأجنبية مزاحمة الأجنبي للعربي في وطنه وعلى خيرات أرضه ، وتحكي مزاحمتُها بالعاميّة عقوقَ أبنائها وجهلَهم مكانتها وأثرها في حياتهم ومستقبلهم .

إن اللغة الأجنبية اليوم ضرورة لازمة لا يستغنى عنها ، ولكنها ليست بديلاً عن لغتنا . وإن العاميّة لها مستواها وموضعها ، فإذا عمَّت عزلت الشعب عن أفكار النخبة المثقَّفة ، وفرّقت الشعب الواحد بين فئتين ، ومزّقت الشعب العربي الواحد وقسّمته إلى شعوب .

إنه ليس للعرب ليسيروا في طريق العلم إلا أن يتمسّكوا بلغتهم الأم يقتحمون بها علوم العصر ، ويطبعون بها حضارتهم ، ويحافظون على تاريخ عربي إسلامي هو من أعزّ ما ينتسبون إليه ويفخرون به . وإن التخلّي عن العربية لا يعني إلا تخلّفاً وتبعيّة في العلم والثقافة ، وتمزّقاً أو زيادة في التمزّق والتفرّق ، وهدماً للوحدة وانسلاخاً من التاريخ .

ولست أشك في أن الذين يقفون في وجه العربية تعريباً في التعليم العالي ، أو تعميماً لها في المجتمع ، أعني الذين يؤثرون الأجنبية في جامعات العرب لغةً للتعليم ، والذين يشجعون العاميّة في المجتمع ، ليسوا إلا الذين ألهاهم كسبهم وتجارتهم وعملهم عن معرفة العربية ، أو الذين غلبت عليهم الثقافة الأجنبية التي تعلّموا بلغتها ، أو الذين لم تؤهلهم ثقافتهم العربية لإدراك أثر اللغة في حياة الفرد وحياة الأمة . وأرى أنه لا يمكن لعربيّ صادق العروبة سليم النيّة يدرك حقيقة اللغة أن يتردّد في التشبّث بها والدفاع عنها والعمل على إحيائها وانتشارها .

أما التجّار وصغار الكسبة فكان ذلك شأنهم منذ

القديم ؛ حكى العالم المقرئ اللغوي أبو عمرو بن العلاء أنه دخل السوق ، فوجد أكياساً مكتوباً على كل منها « إلى أبو فلان » فقال : « يا ربّ ، إنهم يَلحنون ويُرزقون ! » وأما الحياة الاجتماعية فكانت العربية السليمة غالبةً عليها ، فقد روى الجاحظ أن الأعراب الذين كانوا يغدون إلى الحاضرة لا يفهمون الكلام إذا وقع فيه لحن ! وروى أن واحداً سمع المؤذِّن يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله ، فقال له : ما يفعل ويحك؟ وفي تاريخ ابن عساكر أن عبد العزيز بن مروان دخل عليه رجل يشكو صهراً له ـ والصهر في العربية هو الخَتَن ـ فقال الرجل : إن ختني فعل كذا كذا . . فقال عبد العزيز : من ختنَك ؟ فقال له : ختنني الختَّان الذي يختن كل الناس . فقال عبد العزيز لكاتبه : ويحك ، بمَ أجابني ؟ فقال له : أيها الأمير ، إنك لحنت وهو لا يعرف اللحن ، كان ينبغي أن تقول له : مَن ختنُك ؟ فقال عبد العزيز : أراني أتكلم بكلام لا يعرفه العرب ، لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن . فأقام في بيته جمعة لا يظهر ومعه من يعلّمه العربية ، هذا ما كان من شأن العامّة والأعراب ومَن قصَّرت بهم ثقافتهم عن تعلّم العربية .

وأما المثقفون قديماً وحديثاً فلهم شأن آخر وبينهم فرق بعيد ؛ فلقد كانت العربية مقياساً للرجل في مجتمعه ، وكان اللحن عاراً يلحق بصاحبه ، فهذا الخليفة عبد الملك بن مروان يُسأل عن الشيب وقد أسرع إلى رأسه فيقول : مالي لا أشيب وأنا أعرض لساني على المسلمين كل جمعة ؟ لقد شيَّبتني المنابر . وكان يقول : « إن الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها ، فإذا لحن انصرفت نفسي عنها » . وهذا عبد العزيز ابن مروان كان يعطي على العربية ويحرم على اللحن ؛ يأتيه الرجل فيسأله ممَّن أنت ؟ فيقول : من بني فلان ، فيقول لكاتبه : أعطه مئتي دينار ، جاءه رجل يوماً فسأله فقال : مِن بنو عبد الدار ، فقال له : تجدها من جائزتك ، وقال لكاتبه : أعطه مئة دينار . لقد كان شعارهم ـ وقد بدأ اللحن ينتشر ـ ليس للاحنٍ حرمة ! وقد ضرب المتنبي لنا مثلاً فريداً في الحرص على سلامة اللغة وإيثاره التضحية بنفسه على التضحية بلغته فقال :

وكِلْمةٍ في طريقٍ خفتُ أعربها
فيُهتدىٰ لي فلم أقدر على اللَّحن

كان أبو الطيب ملاحَقاً مطلوباً وخشي الرَّصَد في

الطريق ، ففكّر أن يجعل في كلامه خطأ أو لحناً ، وأعداؤه على يقين أنه لا يمكن أن يتسرّب إلى لغته خطأ أو لحن ، وبذلك ينجو منهم ، ولكن نفسه لم تطع ، فلم يقدر على اللحن ، إنه آثر أن يُقتل على أن تُقتل اللغة على لسانه !

« أولئك آبائي فجئني بمثلهم » . وذلك كان موقف العرب الذين حافظوا على لغتهم ولغة أمتهم وحفظوا لأنفسهم كرامتها ، فماذا قال مثقفوها في هذا العصر ؟

واحد منهم له كتب في اللغة وأسرارها ودلالة ألفاظها ، وقف عندما يستشهد به العلماء على الإقواء في الشعر ، وهو أن تأتي قافية مرفوعة في أحد أبيات القصيدة المكسورة القوافي أو العكس ، وهو معروف عند الشعراء حتى الكبارِ منهم كالنابغة الذبياني وحسّان ابن ثابت ، وذلك كما في قول حسّان :

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن قِصَرٍ
جسم البغال وأحلام العصافيرِ
كأنهم قصب جفّت أسافله
مثقَّب نفخت فيه الأعاصيرُ

وكقول النابغة :

سقـط النَّصيـف ولـم تـرد إسقـاطـه
فتنـــاولتـــه واتَّقتنـــا بـــاليـــدِ
بمخضَّـــبٍ رخـــصٍ كـــأن بنـــانـــه
عَنَـــمٌ يكـــاد مـــن اللّطـــافـــة يُعقـــدُ

يصف امرأة سقط خِمارها عن وجهها فاتَّقت نظرته بيدٍ بَنانُها مخضوب رَخْص لو أرادت عقده لانعقد .

قال اللغويّ المعاصر : « إن جميع الأمثلة التي ذكرها العروضيّون للإقواء ليست من قبيل الخطأ الموسيقيّ ، وإنما من قبيل الخطأ النحويّ » يعني أن الشاعر أنشد البيت بكسر الأعاصير وهي فاعل مرفوع ، وأن الآخر كسر (يعقد) وهي فعل مضارع مرفوع ، ثم قال : « حفاظاً على النغمة الموسيقيّة ، ولو كسر بذلك قواعد النحو ، إذ لا يُعقل أن الشاعر الفحل يخطئ في الموسيقا وإن عُقل أن يخطئ في النحو » !!

ويتابع المثقَّف العربي المعاصر كلامه لينتهي إلى استنتاجٍ هو أخطر مما توهّمه وحكم به على الشاعر المسكين فيقول : « وإذا علمنا أن الإقواء كان شائعاً بين الشعراء الجاهليين خرجنا بأن اللحن كان شائعاً حتى بين فصحاء العرب وشعرائهم » !

وهكذا ينسف مثقّفنا وبلا دليل سوى ما يعقله هو وما لا يعقله هو كلَّ ما رواه الرواة ونَقَلة الشعر ، وكلَّ ما انتهى إليه العلماء بالشعر والعروضيون ! وعجيب أن يأخذ بما نقلوه عن شيوع الإقواء بين الجاهليين وينكرَ رواياتهم لذلك الشعر ! ولكن العجب قد يزول إذا علمنا أن هذا المثقّف هو نفسه الذي يقول : إن الإعراب حكاية ملفَّقة اخترعها النحاة « وما أروعها قصة استمدَّت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ، ثم حيكت وتمّ نسجها حياكة محكمة على يد قوم من صناع الكلام ، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعراب حصناً منيعاً حتى على الكتّاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية ، وشقّ اقتحامه إلا على قومٍ سُمُّوا فيما بعد بالنحاة . » !!

ولست أدري هل كان صاحب هذا الرأي على ذُكْرةٍ للقرآن ؟ ولِمَ لم يقل لنا مَن أعربه ؟ وهو فيما أظن يعلم أن القرآن كان قبل القرن الثاني للهجرة ، وهو الموعد الذي حدّده لاستحكام الصنعة على أيدي النحاة ؟ أم لعلّه على مذهب المستشرق ڤولرز الذي زعم أن القرآن لم يكن معرَباً ثم أعربه النحاة فيما بعد ؟

وإذا كان المستشرق يجهل كيف انتقل القرآن مشافهة فهل يجهل الباحث أن القرآن تناقله المسلمون رواية شفهيّة كما لقّنهم إياه مَن أُنزل الوحي عليه ﷺ ؟ وهل كانوا يتناقلونه بلا إعراب حتى استحكمت الصنعة النحوية فأعربوه ؟ وكيف يُعربونه هم على وفق قواعدهم ثم يعودون إليه ليحتجّوا بآياته وألفاظه على صحّة قواعدهم ؟!

إنها آراء وأقوال لا تستحق الوقوف عندها ولا مناقشتها بأكثر مما قلناه فيها من قبل .

على أنه لم ينقض زمن طويل بعد صدور تلك الآراء حتى أطلَّ مثقّف آخر من المدرسة نفسها ، أعني مدرسة اللغويين المتخرّجين من الجامعات الأجنبية ليقول : إن مخالفة القواعد النحوية حفاظاً على النغمة الموسيقية وقعت في كتاب الله ، إنه وقف عند قوله تعالى ﴿ إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ [طه/٦٣] وهي آية وقف النحاة عندها وأوردوا فيها أقوالاً يخرّجونها فيها على مقتضى قواعدهم ، وحسم بعض أئمتهم القول فيها بأنها على لغة قليلة معروفة هي لغة بلحارث بن كعب في إجراء المثنى بالألف دائماً ، وقال آخرون في ﴿ هَٰذَانِ ﴾ إنها

مبنية على الألف ؛ لأن أسماء الإشارة مبنيّة في إفرادها وجمعها وهي كذلك في مثنّاها . أما الباحث المعاصر فقد قال : « إن المناسبة الموسيقيّة الصوتية دعت إلى إهمال العلامة الإعرابية ؛ لأن الرتبة واقتران الخبر باللام أوضحا أن لفظ ﴿ هَذَانِ﴾ لا يمكن فيه إلا أن يكون اسم ﴿إِنّ﴾ ولم يعد للعلامة الإعرابية بعد ذلك من الأهميّة ما يحتّم الاحتفاظ بها ، ولا سيّما أمام إرادة المناسبة الموسيقية بين أصوات المتلازمين » .

وسبحان من علّم هذا الباحث وأعلمه بإرادته المناسبةَ الموسيقية وإيثارَه إيّاها على الحركة الإعرابية الدالّة على المعنى في كتابه الذي وصفه سبحانه بأنه أُنزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ . ثم نمضي سنوات قليلة ليصبح هذا القول فتحاً جديداً يتعلّمه طلابنا في الجامعة في كتاب « فصول في النحو والصرف » !

ويحسن بعدما سمعنا آراء اثنين من علمائنا المعاصرين عن إيثار الفصحاء والشعراء الجاهليين للنغمة الموسيقية على الإعراب ، أن نسمع كلام مَن هو أخبر منهما بكلام العرب ، وأقرب إلى عصور الاحتجاج والتدوين ، وهو الإمام اللغوي أبو الفتح عثمان بن جني

الذي تعدّ كتبه مراجع في فقه اللغة ونحوها وصرفها وأصواتها ، والمتوفَّى سنة ٣٩٢هـ ، إنه يقول : « اعلم أن البيت من الشعر إذا تجاذبه أمران : زيغ الإعراب وقبح الزحاف ، فإن الجفاة الفصحاء لا يحفلون بقبح الزحاف ـ أي بشاعة النغمة الموسيقية ـ إذا أدَّى إلى صحّة الإعراب » ثم يتابع فيقول : « كذلك قال أبو عثمان ، وهو كما قال . » وأبو عثمان هو المازني شيخ المبرّد والمتوفَّى سنة ٢٤٩هـ .

إنها شهادة عالمين من علماء اللغة الأثبات ، وقد بلغ أحدهما الذروة في فقه اللغة وأصواتها والعلم بالشعر في عصره، وكلاهما على أن الشاعر لا يبالي بقبح النغمة الموسيقيّة إذا أدّى إلى صحّة الإعراب . ومن علمائنا اليوم من يرى أن إرادة الموسيقا في القرآن أقوى في بعض الآيات من إرادة الإعراب ، لأن غيره كما يدّعي قام مقامه ، وهو باب يفتحه للتخلّي عن الإعراب في كل موضع تقوم فيه قرينة غير الإعراب على إرادة المعنى !

وتصل الجرأة بالآخر إلى اتّهام الشعراء الجاهليين بالخطأ واللحن ! بل إنه يتهم العلماء بالشعر والعروض . . وهذا منهج في العلم جديد يقوم على

إنكار كل ما نقل أو ثبت بلا دليل سوى أن هذا معقول وهذا غير معقول ! قال أبو الحسن أحمد بن محمد العروضي المتوفَّى سنة ٣٤٢هـ في « كتاب العروض » وهو الذي صدر باسم « صنعة الشعر للسيرافي » : « وقد رأيت جماعة من الناس ممن له أدب ومعه ضروب من العلم ، لا يفرّق بين البيت المكسور والبيت المزاحَف ، فإذا سمع البيت المكسور الذي لا يتّزن قال هذا مزاحَف ، وليس يعلم أن الزحاف جائز عند جميع أهل العلم . . . والزحاف كثير في الشعر جدّاً » .

وقد جئت بهذه الشهادة عن الزحاف ؛ لأن الزحاف قبح في النغمة الموسيقيّة أيضاً . وقال العروضيّ أيضاً : « اعلم أن الإقواء معيب وقد استعمله العرب » . ونقل عن أبي الحسن الأخفش المتوفَّى سنة ٢١٥هـ أنه سمع الإقواء من العرب كثيراً ، وأنهم لا يستنكرونه » .

وفي كتاب الموشَّح للمرزباني أن النابغة حين أنشد داليّته وقال في أحد أبياتها : (باليدِ) وقال في الذي بعده : (يُعقَدُ)، لم يبالِ بالإقواء ، فدسّوا له جارية وأوصوها بمدّ صوتها في الغناء ، فظهر له الفرق بين البيتين أو النغمتين ، فأصلح الثاني بقوله : « عَنمٌ على أغصانه لم

يُعقدِ » وقال : « قدمت الحجاز وفي شعري صنعة ، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس » .

أفنأخذ بقول علماء اليوم وهو زعم لا يؤيّده دليل ، ونردّ أقوال المازنيّ وابن جني والعروضي والمرزباني وكل الرواة والعروضيّين ؟! وهو قول يردّه ما عرفناه من حرص العرب على فصاحتهم وبهرجتِهم لمن يلحن ، ورفع مجتمعهم لشعار « ليس للاحنٍ حُرمة ! » .

على أنه مهما يكن من أمر هذه الآراء والأقوال التي يراها العلماء من المعاصرين ، فإننا لا نعني الحجر على الآراء ولا مصادرة الأقوال ؛ بل إن من حق كل باحث أن يجتهد سلباً أو إيجاباً شريطة أن يقدّم دليله بين يدي رأيه ، وأن يؤيّد قوله بالحجة والبرهان .

ولعلّ من هو أشدّ ضرراً في المجتمع العربي عامة أولئك الذين يقفون في وجه العربيّة في التعليم العالي وبذلك ـ وأيّاً كانت حجتهم ـ يقفون مع أعداء العروبة الذين يريدون بقاء العربية بعيدة عن ميادين العلم ، متّهمين إياها بالعجز والتقصير ، قاصرين أكثر العلم وأحدثه على من يتقن الأجنبية من أبناء العرب ، إنهم يقفون بشعور أو غير شعور مع ويلكوكس الذي دعا

العرب إلى التخليّ عن العربية واللجوء إلى العاميّة ، ومع مرغوليوث وهو الذي بذل جهوداً كثيرة للطعن في العربية وإقناع الحكّام والعلماء باستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي ، وزار في سبيل ذلك دمشق وعمّان وطهران . ولحق هذه الدعوات عرب مستغربون وزيّنوها للناس ، واتخذوا لأنفسهم منابر إعلامية من صحافة وغيرها ، وكان صائحهم يصيح في مصر فتسمع صداه في لبنان ، أو يصيح في لبنان فيكون صداه في مصر . . ولم يُكتب لدعواتهم النجاح ، ولم يصدّقها إلا أتباع لأصحابها لم تكد تمضي السنون وتستعلي الأهواء الهوجاء والنزعات الحاقدة حتى تبيّن أن الأتباع هم أنفسهم طلائع الاستعمار وعملاء الأجنبي ، عرفتهم الأمة بأسمائهم في كل من مصر ولبنان .

إن الذي يحول دون أن تكون العربية اليوم لغة علم ولغة حضارة أمران متلازمان ؛ أحدهما تخلّف العرب أنفسهم عن أن يكونوا أمة علم وأصحاب حضارة ، وثانيهما حجْبُ اللغة نفسِها عن اقتحام ميادين العلم وجعلُها لاهثة وراء ترجمة لا تسمن ولا تغني من جوع ، لضآلة إنتاج العرب فيها ، ولقلّة المستفيدين منها ولبطءِ

لا تستطيع معه اللحاق بالجديد .

إن الذين يحولون دون التعريب في الوطن العربي ـ وقد اتخذت قراراته غير مرة ـ والذين يظنون أن الترجمة تغني غناءه ، هم الذين فقدوا الثقة بأنفسهم وبلغتهم وبأمتهم ، وكانوا النغمة الشاذّة في العالم كلّه ، والأبناء العققة بين الأقوام كلها ، لأن العرب هم الأمة الوحيدة في العالم التي تدرّس أبناءها في جامعاتها بغير لغتها القومية !

وتجدر الملاحظة بتنبّه وحذر شديدين إلى أن سورية وهي القطر العربي الوحيد الذي كان رائد التعريب الجامعي قامت فيه اليوم جامعات خاصّة تدرّس فيه بغير العربيّة ! وكأنها سياسة التفاف على التعريب ، ونقلٍ للجامعات الغربية إلى القطر العربي الوحيد المستعصي على التغريب !!

ويزداد الأمر خطورة إذا سُمح للمدارس الخاصة في المراحل قبل الجامعية أن تدرّس بغير العربيّة ليكون من تخرّجهم هذه المدارس زاداً للجامعات الأجنبية الخاصة !

وبعدُ ، فإذا أراد العرب المحافظة على وجودهم في

عالمٍ يتداعى لالتهام قصعتهم ، ويسعى إلى طمس ثقافتهم ، ويعمل على تذويب قوميّتهم في شرقِ أوسط كبيرٍ ، بل إغراقهم في عُباب محيطٍ عالميٍّ جديد ، فليس لهم من قارب نجاة سوى :

١ ـ أن يتعالوا على الحدود السياسية المصطنعة لأقطارهم بفكرٍ عربيّ صادق وطموحٍ قوميّ جادٍّ ، وألا تكون العروبة شعاراً سياسيّاً للمزايدات ، وألا يجعلوا تمسّكهم بدولهم واستقلالها حائلاً دون العمل للمصلحة القوميّة .

٢ ـ أن يُحيوا انتماءهم إلى تاريخ عربيّ عريق واحد ، ويرسّخوا في جميع أقطارهم أن لأمتّهم ثقافة واحدة . ولا يتمّ ذلك إلا باللغة العربية التي هي ذاكرة ذلك التاريخ ، ووعاءُ تلك الثقافة .

٣ ـ أن يتطلّعوا إلى استعادة دورهم في صنع الحضارة ، لأن الحضارة تُصنع ولا تُستورَد ، ولا يشارِك بها ولا يوصف بها إلا من يصنعها . ولا يصنعها إلا مَن يملك العلم ، والعلمُ لا يملكه من يستورده بل من يبدعه ، ولا تبدع الأمة العلمَ بغير لغتها .

العربية هوية ونسب[1]

تتصف اللغة العربية بصفات تفرّدت بها من بين لغات العالم ، وهي :

١ ـ أنها أطول اللغات الحيّة عمراً ، فهي اللغة التي ما زالت منذ عرفها العرب الأوّلون تجمع الأمة الناطقة بها إلى اليوم على تباعد شعوبها مكاناً ، وامتداد تاريخها زماناً في وحدة منقطعة النظير . ولو أنصف العالم لاتّخذ من اللغة العربية مثالاً فريداً للغةٍ لم يعرف العالم الإنساني مثلها في بقائها حيّة فاعلة على مدى نحوٍ من ستة عشر قرناً أو يزيد ! لو كانت العربية بمفرداتها أحجاراً كالتماثيل لعدوّها فريدة العصور ودرّة المتاحف فكيف وهي كائن حيّ متطوّر ، عاش ومات نظراؤه وخلد وفني قرناؤه ، وبقي وحيداً يحكي تجربة لم تعرف البشرية نظيراً لها في طول عمرها ، وغِنى مادّتها ، وثراء ثقافتها ، وإشعاع حضارتها وبقائها حيّة فاعلة .

---

(١) نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . م٨٥ ج٢ .

٢ ـ والصفة الثانية للعربيّة أنها ترتبط بكتاب إلهيٍّ لم ترتبط بمثله لغة أخرى من لغات العالم . فما من لغة ارتبطت بكتاب ديني مقدّس ارتباط العربية بالقرآن . فلقد شاءت إرادة الله سبحانه أن تكون العربية صوت وحيه وحروف لغته في خاتمة رسالاته ، بل أن تكون هي ثوب الإعجاز في كتابه الكريم ، إنها كلام الله في كتاب الله ، ورحم الله علامة الدير عطية وعابدها وعالم الشام الشيخ عبد القادر القصّاب القائل عن ربه :

لـــه كـــلام قـــائـــم بـــالـــذّات
بـــلا حـــروف وبـــلا أصـــوات

وصدق الله العظيم القائل في صفة كتابه الكريم : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] . وأنـــا لا أقـــول بتعليـــق ﴿ بِلِسَانٍ ﴾ بـ ﴿ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ وإنما هي عندي متعلّقة بـ ﴿ نَزَلَ ﴾ ليكون المعنى : نزل به الروح الأمين بلسانٍ عربي مبين . وسنعود إلى تفصيل ذلك وبيان أثره فيما نحن بصدده من كون اللغة هُويّة للأمة .

٣ ـ وأما الصفة الثالثة للعربيّة ، فهي أنها لم تؤتَ

لغة من اللغات ما أوتيته العربية من قدرةٍ على جمع الأمّة المؤمنة بها على اختلاف أديانها وعقائدها وأعراقها وأجناسها .

إن أمّتنا اليوم لا تخرج عن كونها عرباً مسلمين وغير مسلمين ، ومسلمين عرباً وغير عرب .

أما العرب ، فأيًّا كان دينهم ، فإن العرب قومهم والعربية لغتهم ، وإن صدق انتسابهم وإخلاص ولائهم يدعوهم إلى الإيمان بالعروبة قومية ، وبالعربية ركناً من أركان قوميّتهم ورمزاً لانتسابهم إلى تاريخ عبّرت العربية عنه وطبعت حضارته . وإن من حقّنا أن نجعل إخلاص العربي غير المسلم للغته مقياساً لصدق قوميّته وادّعائه لها وانتسابه إليها . وأن نجعل عمله لخدمة العربية وصيانتها مقياساً لصدقه فيما يدّعيه .

وأما المسلم ، فأيّاً كان جنسه ، فإن العربية لغة قرآنه وحديث نبيّه ، ولسان عبادته ، ومستودع شريعته .

وهكذا يجتمع على العربية من يؤمنون بها إيماناً قوميّاً ولغويّاً ، ومن يؤمن بها إيمان عقيدة ودين .

ولو عرف هؤلاء وأولئك كل ذلك معرفة واعية ، ولو كانوا جادّين مخلصين فيما يدّعون سواءً أكانوا مسلمين

أم قوميّين لما قامت في بلادهم مشكلة الأقليّات وما تبعها من تجزئة وتمزيق .

ولكم أن تطبقوا ذلك على ما يحدث اليوم من تنكّر لهذا الوعي وهجر لهذه الوحدة اللغوية وما يجرّه ذلك على الأمة في العراق وفي السودان وفي غيرهما من أقطار ما زال الأعداء يبذرون فيها بذور الفتن العرقية والطائفية والدينية والمذهبية ليصبح الشعب الواحد شعوباً ، والأمة الواحدة أمماً ، والقطر الواحد أقطاراً .

وانظروا إلى الفرق بين ما يقوله بعض العرب عن لغتهم ، وبين ما يقوله بعض الغربيين عن اللغة :

ـ اللغة القومية عندنا :

منّا من قال : الفصحى سبب هزيمة العرب !

ومنّا من تابع غيره وقال : هجر الفصحى في العلوم شرط للتقدم !

ومنّا من قال : حروف العربية متنوّعة باهظة التكاليف ، فلنهجرها إلى الحرف اللاتيني !

ومنّا من قال : العاميّة ألصق بالشارع وأرحب للتعبير عن أحاسيس النفس .

وعند غيرنا :

ـ اللغة تجعل الأمة الناطقة بها وحدةً متراصّة ؛ لأنها الحقيقة الوحيدة التي تربط بين عالم الأجساد وعالم الأذهان « فخته » .

ـ اللغة القومية وطن روحي يُؤوي من حُرم وطنَه على الأرض .

ـ بيانات الثورة الفرنسية تدعو إلى إتقان اللغة ومحاربة اللهجات المحلية « فوسلر » .

ولا يذهبنَّ بأحدٍ ظنُّه بعد كل ما قدّمناه أننا نحارب اللغة الأجنبية ، أو ندعو إلى إبعادها ، بل نحن نرى في تعلّمها ضرورة لازمة وحاجة لا يُستغنى عنها ، وكل الذي نطالب به هو ألا تكون اللغة الأجنبية في بلاد العرب بديلاً عن لغتهم . وندعو إلى وضع سياسة لغوية تبعثُ في أجيالنا وعياً لغويّاً يقفهم على حقيقة اللغة وأثرها في بناء شخصية الناطق بها ، إن للّغة الأمّ سرّاً في حياة المرء ، ولا أقول لغةَ الأمِّ بل أعني اللغةَ الأمَّ التي تُرضع أبناءها انتماءً لقومهم وولاءً لأمّتهم ، وتوحّد أفكارهم ، وتعبّر عن ثقافتهم ، وتجعل بينهم رابطة اجتماعية وفكرية وثقافية وقوميّة ، تذكّرنا بما نراه اليوم

ونسمع عنه من روابط خرّيجي الجامعات الإنكليزية والأمريكية أو الفرنسية ، تجمع بعضهم إلى بعض ، وتقيم لهم المؤتمرات ، وتقدّم لهم الدعم والتأييد أينما كانوا ، لأنهم يشكّلون هيئة السفراء للأمة التي تعلّموا لغتها وتطبّعوا بثقافتها .

إن التاريخ يحدّثنا أن الوحدة اللغوية كانت أقوى من الوحدة السياسية حين انقسمت دولة الخلافة العبّاسية إلى دويلات ، لكل منها حاكم ونظام واسم ؛ عباسي في بغداد ، حمداني في الموصل وحلب ، إخشيدي في مصر ، أموي في الأندلس ـ ومع ذلك الانقسام السياسي بقيت اللغة بوحدتها اللسانيّة مستعلية على الحدود ، مستعصية على التمزيق ـ يتنقّل المواطن العربي بين تلك الدويلات وكأنه في كلٍّ منها في قطره أو وطنه ، لا اختلاف ولا غربة ، لأنه أنّى رحل باقٍ في حضن لغته التي أَلِفَها وأَلِفَ التعبير بها عن نفسه ووجدانه وأغراضه وألف مفاهيمها عن الحياة والكون .

إن اللغة وعاء الثقافة ، واللغة نفسها ثقافة ، واللغة هُويّة للناطقين بها ، وهي نفسها رمز لتلك الهويّة . واللغة نَسَبُ المرء إلى أمّته ، ورمز انتمائه إلى قومه .

وإن من جهِل ذلك ، وظنَّ أن اللغة مجرّد أصوات للتفاهم أُمّيٌّ ثقافيّاً ولو كان يعرف القراءة والكتابة ! إن من يجهل ذلك كمن يتخلّى عن نسبه إلى أمّته .

إن العربيّة هي صورة أمّتنا في كل ما أنتجته من علم ومعرفة وحضارة . هي أمتنا في علومها وآدابها وفنونها ، في قيمها الدينيّة ، والخُلُقية والاجتماعية .

ولا بدّ للعرب إذا كانوا جادّين في مشروع نهضتهم من أن يحسبوا للّغة حسابها ؛ لأن أثر اللغة في حياة الأمة بالغ ؛ فهي بوحدتها على ألسنتهم وأقلامهم صلة أفكارهم وأرواحهم ، وهي بعد ذلك القالَب الذي بوحدته تتوحّد لغتهم وفكرهم وثقافتهم ، وأساليب تفكيرهم ، فيتوحّد سلوكهم وتتوحّد مواقفهم إزاء ما يمرّ بهم من أحداث .

لغتنا تحمل ثقافتنا ، وتربط فيما بيننا مكاناً في جغرافية الوطن العربي اليوم ، وزماناً مع أجيال سبقت وتاريخ مضى ، وأجيال آتية وتاريخ مقبل . وهي تمدّ بأيديها إلى شعوب تعرّبت بالقرآن ، وتفرّقت بها الأوطان . فإلى وعي لغوي سليم أعلنتُ قبل نصف قرن أنه قرين الوعي السياسي والوعي القومي وقلت : لا يبلغ

الوعي السياسي ولا الوعي القومي مداهما ما لم يقترنا بوعي لغوي سليم .

ونحن لا نسمّي واعياً من اكتفى بفهم اللغة ! أو أحسن التكلّم بها ، أو مهر بالإنشاء على أساليبها ؛ فذلك كلّه من صفات المتعلِّم ، وأمّا الوعي السليم في مجال اللغة فهو أن يفقه المرء طبيعة لغته وحقيقة خصائصها ، وأن يدرك أثرها في بناء الشخصية وسلوك المرء وحياته ، ليتّخذ بعد ذلك موقفاً من مشكلاتها واعياً مبصراً ينسجم مع وعيه لجميع جوانب حياته الروحية والسياسية والفكرية والقومية .

وأذكّر أخيراً بما بدأتُ به من التنبيه على خطر الاحتلال الثقافي الذي بدأت أهدافه تظهر بوضوح ومنها :

١ ـ إضعاف العرب علميّاً ، أو إبقاؤهم بعيدين عن العلم الموصل إلى القوّة والتقدّم أو النهضة ، ولا شك أن من أسباب غزو العراق ما كان يتمتع به من أسباب القوّة ، لذلك كانت الهجمة عليه أشرس ما تكون وضوحاً **في تقتيل علمائه أو خطفهم ، وفي حرق مكتباته أو سرقتها ، وفي اصطياد الجامعيين ، وتعطيل كل**

ما يتصل بالعلم بسبب .

٢ ـ عدم تمكين الثقافة العربية من أن تقوم بدورها الفاعل والمؤثِّر في محيطها العربي ، وإلغاء دورها في المحيط الإسلامي ، وجعل هذه المنطقة العربية الإسلامية منطقةً شرق أوسطية ، تنضوي شعوبها في جملة شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط .

٣ ـ إيجاد جيل تربّيه المسلسلات والدعايات ، وتشدّه نزعة الانبهار بالأجنبي ولغته وثقافته وقوّته وطراز حياته في المأكل والملبس ، ويرغب في تقليده في سلوكه وفي كثير من قيم حياته الأجنبية أو الغربيّة والأمريكية لينشأ جيلاً قابلاً للانزياح ثم قابلاً للتبعيّة .

وإذا أردنا درء الأخطار الزاحفة إلينا والمحدقة بنا فإن من أبرز أسلحتنا وأهمّها أثراً في صمودنا أن نعتصم بكتاب ربّنا ، وكتابه سبحانه مضمونه ولغته ، لغته هي هذه العربية التي لا يكون القرآن قرآناً إلا بها ، والقرآن مصدرٌ أُطلقَ اسماً على كتاب الله على وزن شكران وغفران ، وقد أُمرنا بتدبّره ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] . ولو تدبَّرناه لوجدنا صفة العربيّ تتردّد فيه متكرّرة إحدى عشرة مرة ! لا تطلق في

مرة واحدة منها على شعب أو أرض أو وطن ، وإنما تطلق فيها جميعاً صفة للّسان أي للّغة !

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] .

﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] .

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣] .

وما تكرّرُ ذكرِ صفةٍ لموصوف بمثل هذا العدد من المرّات إلا للفت نظر الذين يعقلون والذين يعلمون ، إلى خطر اللغة التي شرّفها الله بأن أنزل وحيه بحروفها ، وجعلها آية كتابه المعجز ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] .

ألا يعني كونُ العربيّة من مظاهر الإعجاز القرآني أنه ما من عربيّ مخلص لعروبته ولقومه ، أيّاً كان دينه ، إلا وجب عليه الإخلاص لهذه اللغة ؟

أولا يعني أيضاً كونُ العربية لغة القرآن الكريم أنه ما من مسلم ، أيّاً كان جنسه ، وأيّاً كانت لغته ، إلا وجب عليه أن تكون العربيّة عنده فوق أيّ لغة ؟

إننا في عصر يجب أن نقيس فيه وعي الناس من عرب على اختلاف أديانهم ، ومن مسلمين على اختلاف أجناسهم وألسنتهم ، بإخلاصهم للغة العربية ، كما نقيس وعي المثقفين بمواقفهم من قضايا اللغة ومناصرتها ، إذ هي اليوم جامع الأمة وحارسها من الضياع . إن الثقافة هي العقل المشترك للأمة بما تمثّله من فكر ودين وأدب وفن وقيم ، وإنّ اللغة هي النظام الشامل لتلك الثقافة ، لذلك كانتا في الفرد نواة أمّته في نفسه ، وصورة هويته ورمز انتمائه .

أليست العربية اليوم هي التي تربطنا عبر الزمان بتاريخ أمتنا الماضي ؟

أليست هي اليوم رابطتنا على امتداد المكان بالناطقين بها فوق كل أرض ، بلا توقف عند حدود أو سدود ؟

أليست العربية اليوم هي وحدها بين كل مظاهر حياتنا التي تعلو على الزمان وعلى المكان لتترك في قلب كل ناطق بها أنه واحد من جماعة وأنه مواطن من أمة ؟

أليست هي اليوم التي تملأ العربيّ إحساساً وانتماءً إلى كل من تكلم بها ماضياً . وكل من يتكلّم بها

حاضراً ، وكل من سيتكلّم بها مستقبلاً . . . ؟ أعني أليست هي اليوم روحاً من روح الأمة العربية يعيش في واحد من أبنائها ؟

وهل الشعور القومي إلا امتلاء الفرد بروح أمته ؟ وهو الروح الذي تتركه اللغة في نفوس الناطقين بها .

أليست آيةٌ من كتاب الله يقرؤها المسلم أو يسمعها كافيةً لتمتلئ نفسه فخراً واعتزازاً باللغة التي خاطبه بها ربّه ، فإذا هو مع كل آية مرتبط بالسماء مستعلٍ على الأرض . . . وإذا الحبل الذي يربطه بربه ، يربط كل مسلم مثله ، فإذا التالون لآيات القرآن متجهون أمة واحدة إلى غاية واحدة . . إنها لغة القرآن وحّدت شعور أمة القرآن ، ولغة العرب ووحّدت ألسنة الأمة العربية ووجّهت قلوبها وأرواحها نحو الله .

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

مع الهمّ اللغوي

للغة أبعاد كثيرة يعرفها الدارسون والباحثون ، منها البعد الفردي النفسي ، ومنها البعد الفكري ، والبعد الاجتماعي ، والبعد القومي ، ولا بدّ من وقفة في اللغة العربية أيضاً عند بعدها الديني الإسلامي لنبيّن الصلة بين العربية والشريعة من جهة ، وبينها وبين الناطقين بها من الشعوب الإسلامية ، وكيف فات العرب استثمار هذا المدّ الذي أتاحته لهم اللغة العربية في بلاد غير بلادهم وشعوب وأمم غير شعبهم وأمتهم ، وجعلت لهم من صلات اللسان والثقافة القرآنية امتداداً واسعاً إلى بلادٍ كتركيا وإيران وأندونيسيا والباكستان ، وإلى أقليات أخرى كثيرة منتشرة في العالم .

إن الموازنات لتظهر المفارقات في زهد القوميين العرب بهذه الصلات ، وإحجام بعضهم عن قبولها أو الاعتراف بها ، وتنكّر بعضهم لها ، ووقوف أكثرهم دون الطموح إلى التفكير في استثمار هذه الصلة لتقوية المدّ اللغوي العربي في تلك البلاد ، وهو أمر يعود بأنفع

الآثار وأجداها على لغتهم القومية نفسها وعلى توسيع رقعتها ونشر ثقافتها في بلاد ما كان لهم لولا الإسلام أن يصلوا بلغتهم إليها .

وقد كان على العرب يوم كانت لغتهم معترفاً بها في تلك الدول الإسلامية أن يجعلوها لغة التبادل التجاري والاقتصادي بينهم وبين تلك الدول ، إذن لمهّدوا لاتساع رقعتها ولرسّخوا وجودها لدى تلك الشعوب وربطوا بها حاجة الشعوب الإسلامية إلى التجارة والمبادلات الاقتصادية مع الدول العربية ، ولست مبالغاً إذا قلت : إن العربية كان يمكن أن تغزو العالم مع النفط العربي ، وأن تتدفق معه عبر تواصل أصحابه التجاري مع العالم . . لقد كان علينا أن نفرض لغتنا مع بضاعتنا كما يفرضون هم اليوم لغتهم مع بضاعتهم ؛ وهم إلى ما نصدّره إليهم من نفط أحوج منا إلى ما يصدّرونه إلينا من كماليّات في اللباس والطعام والشراب والزينة ، ولكن أين طموحنا من طموح الأمم التي تفتتح في كل بلد مركزاً ثقافياً يعلّم لغتها وينشر ثقافتها ، حيث لا صلة بينها وبين البلاد التي زرعت مكاتبها أو مراكزها الثقافية فيها ، ودفعت في سبيل ذلك ثروات طائلة وفّرها

الإسلام للعرب فحمل لغتهم مجاناً ، وكساها عند غيرهم محبّة وتقديساً .

وكان يمكن لهذا المدّ اللغوي أن يكون فاتحة صلات ثقافية وأخرى اقتصادية ، والعجيب أن الذين تحدّثوا عن البعد الاقتصادي تناولوه من جانب واحد فقط ، وهو أن تعلُّم أبنائنا اللغة الإنكليزية يجعلهم قادرين على مباشرة أعمالهم التجارية والاقتصادية مع الناطقين بتلك اللغة ، إنهم لم يتحدثوا عن أثر مزاحمة اللغة الأجنبية للغة القومية في وطنها ! ومعلوم أن تعلّم لغة أجنبية شيء ، بل شيء نافع ، وأن تفرض لغة أجنبية في غير وطنها شيء آخر . إنها مزاحمة للغة الأم ، وإنها الطريق إلى مزاحمة الناطقين بها للمواطنين أصحاب البلاد ، ولعلّ لنا في التاريخ عبرة لمن أراد أن يعتبر ، فلقد كانت اللغة في الدواوين في العراق والشام ومصر بغير العربية في صدر الحكم العربي الأموي ، كانت في دواوين العراق فارسية فعرّبها الحجاج ، وكانت في الشام روميّة فعرّبها عبد الملك بن مروان ، وكانت في مصر قبطية فعرّبها عبد العزيز بن مروان ، وكان ذلك في سنة ٦٥هـ حين كان والياً على مصر في عهد أبيه مروان بن الحكم .

ولبيان الصلة بين اللغة وسوق العمل والتجارة أفضّل ما كان من أمر التعريب وما استتبع من رحيل العمالة الأجنبية ؛ لقد كان في الكوفة والبصرة ديوانان ، أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهو الذي كان قد أنشأه عمر بن الخطاب ، والآخر بالفارسية وهو المختصّ بالشؤون المالية . وكان في الشام مثل ذلك ، ديوانان أحدهما بالعربية والآخر بالروميّة ، واستمرّت الحال على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان . ولمّا قلّد عبد الملك الحجاج العراق ، كان يكتب له رجل اسمه صالح بن عبد الرحمن المشهور بأبي الوليد ، وكان يتولّى ديوان الفارسية إذ ذاك رجل فارسي اسمه زاذان فروخ ، فخلف على هذا الديوان صالح بن عبد الرحمن ، فأحبه الحجاج وقرّبه فقال يوماً لزاذان : إني قد خففت على قلب الحجاج ، ولست آمن أن أزيلك من محلّك لتقديمه إياي وأنت رئيسي ، فقال زاذان : لا يفعل فإنه أحوج إليّ مني إليه ، قال : كيف ذلك ؟ قال : لا يجد من يتولّى أمر الحساب ، قال صالح : إني لو شئت حوّلت الحساب إلى العربية . قال : فحوّل منه سطراً ، فحوّل صالح منه شيئاً كثيراً ، فقال زاذان

لأصحابه : « التمسوا مسكناً غير هذا » . وهكذا أنذر الفارسي أصحابه بقرب الرحيل ما دام أصحاب البلاد قد أصبحوا قادرين على إدارة دواوينهم بلغتهم ، ومعنى ذلك أن العرب أي المواطنين هم الذين سيحلّون محلّ الأجانب ما دامت العربية هي المستعملة في الدواوين والمؤسسات .

وكان تعريب الحجاج لدواوين العراق سنة ثمان وسبعين للهجرة .

وأما الديوان الذي كانت لغته الرومية في بلاد الشام فكان يتولاه رجل من أهل الذمة اسمه سرجون بن منصور فأمره عبد الملك بن مروان يوماً بأمرٍ فتثاقل وتباطأ فيه ، فعاد لطلبه وحثّه عليه ، وأحسّ منه تفريطاً وتقصيراً فقال لأبي ثابت سليمان بن سعد ، وكان على ديوان الرسائل : أما ترى إدلال سرجون علينا ؟ إني أظنّه قد رأى حاجتنا إليه وإلى صناعته ، فظنّ أن لن نقدر على الاستغناء عنه ، أفما عندك حيلة ؟ فقال أبو ثابت : لو شئتَ لحوّلت لك الحساب إلى العربية ، قال : فافعل ، فحوّله فردّ إليه عبد الملك كل دواوين الشام وجعله مسؤولاً عنها . فامتلأت تلك الدواوين بالعاملين من

المواطنين بعد أن كانت مقصورة على الأجانب لأنها تدار بلغتهم . وهذا ما يفعله الواعون المخلصون لخدمة لغتهم ومواطنيهم ، وإيثاراً للاستقلال عن تبعيّة للغريب في كل أمورهم وشؤون حياتهم ، على حين تُشترط معرفة الإنكليزية في أسواق العمل في بعض بلادنا العربية . . ولقد رأينا كيف تُفرَض اللغة الأجنبية على المواطنين العرب في بلادهم بدل أن تفرض العربية على القلّة الأجنبية الوافدة .

والعجيب أننا نسمع أن الإنسان هو الغاية من التنمية وأن كل شيء مسخّر له ، ثم نرى الإنسان نفسه مسخّراً لتنمية يقوم بها الأجانب الذين زاحموهم على العمل في بلادهم حتى أصبحت العربية غريبة في كثير من مؤسسات الدولة وإداراتها ، وفي الشركات الخاصة والمحلات التجارية الكبيرة ، وكان من أثر هذا ازدياد عدد الأجانب العاملين في الوطن وازدياد عدد العاطلين عن العمل من أهل الوطن !

إننا بدلاً من أن نطلب إلى الأجنبي الذي نستخدمه في بلادنا أن يتقن لغتنا ، طلبنا من العربي في وطنه أن يتقن اللغة الأجنبية !!

وسمحنا للمدارس والجامعات الأجنبية أن تعلّم أبناءنا باللغات الأجنبية ، فهمّشنا اللغة القومية في وطنها وفوق أرضها مع أن التجربة الماليزية والكينية أثبتت أن الطلاب الذين تعلّموا العلوم بلغتهم كانوا أكثر تفوّقاً في إدراك مفاهيم العلوم التي درسوها من زملائهم الذين تعلّموا تلك العلوم باللغة الإنكليزية .

لقد أخطأ العرب الطريق حين تركوا لغتهم في التعليم العالي حين أسّسوه ، ولو عرّبوه في جامعاتهم يومذاك لكانوا الآن أكثر تقدّماً في العلوم ، وأوسع شمولاً في نشر العلم ، وأكثر إحياء للغتهم ، ولأثبتوا للعالم ما لم يستطيعوا إثباته حتى اليوم .

يقول د . أحمد الضبيب : « إن تعريب التعليم الجامعي خطوة مهمة نحو إثبات الوجود في هذا العالم المضطرب الذي لا يحترم إلا الأقوياء ، وإن لنا لأسوة حسنة في الدول المتقدمة التي سارت في هذا الاتجاه فحصدت الخير الكثير ، وفي هذا المجال أذكر أني عندما كنت عميداً لشؤون المكتبات في جامعة الملك سعود التقيت أحد كبار الناشرين اليابانيين ، فسألته: كيف تسنّى لليابان أن تترجم الكتب والمراجع الأجنبية

كي توفر المادة المطلوبة للتعليم الجامعي في اليابان باللغة اليابانية ؟ فقال لي : إن اليابان لا تحتاج أن تترجم الكتب الدراسية ، إن الناشرين الأجانب هم الذين يُصدرون طبعات خاصة باليابانية لكتبهم . إن عليك أن تتخذ القرار ، وما دام السوق مربحاً فإن الناشرين الأجانب هم الذين يتولّون الأمر بإشرافك وتبعاً لرغباتك . وعندها تساءلت : ترى لو أن البلاد العربية اتبعت سياسة التعريب في المجال الجامعي أليست تمثّل سوقاً يعتدّ بها في هذا المجال ؟ وكيف غاب ذلك عن العرب ، فقضوا أكثر من ثمانين عاماً أسرى للغة الأجنبية التي أغلقت في وجوههم أبواب الإبداع ، وجعلتهم يراوحون مكانهم في ساحة التبعيّة والتقليد ؟ »[1] .

إن علينا أن نؤمن إيماناً لا يشوبه شك أن خير السبل للتقدّم أن تنقل العلوم إلى لغتنا ، لا أن ننقل أبناء الوطن إلى لغات العالم يستجدون ما يسمح لهم به أصحابها . . وإن لنا أن نسأل : أين هو التقدم الذي أصابته الشعوب الأفريقية التي فُرضت عليها الفرنسية والإنكليزية حتى

---

(١) د . أحمد بن محمد الضبيب : اللغة العربية في عصر العولمة . ص٥١ .

بات الكثير من أبنائها لا يعرفون سواها ؟! وأن نسأل في المقابل : أيّ لغة غير اليابانية تعلّم بها اليابانيون حتى أصبحوا ينافسون أرقى الدول تقدماً وصناعة واقتصاداً ؟

ولنا أن نسأل أيضاً : هل سمحت إسرائيل ، وهي التي تضم أشتاتاً من كل أرض وكل لغة ، أن تتسرّب إلى جامعتها العبرية غير لغتها العبرية ؟!

لقد نقلت جميع دول العالم بلا استثناء العلوم إلى لغاتها القومية ، وترك العرب لغتهم التي كانت لغة علم وفلسفة وحضارة ليعيشوا اليوم كالأيتام على موائد اللئام .

ولم يقف الأمر في البلاد العربية عند حجب العربية عن التعليم العالي ، بل بدأ الأمر يتعدى ذلك إلى تهميش العربية ومزاحمتها في موطنها ، ومحاولة إبعادها عن مكانها الطبيعي في الإعلام ، وفي الأسواق وفي حياة الناس عن طريق استعمال اللغة الأجنبية في تسمية الفنادق والمطاعم والمحلات التجارية ، واستعمال العاميّة في التدريس ودور العلم وفي كثير من وسائل الإعلام ، وقدّم أصحاب هذا الزحف المناوئ للعربية حججاً وتعليلات ادّعوها ؛ فزعموا أن الأجنبية هي

الجاذبة للسيّاح وهي الملائمة للسياحة ، كأننا حين طالبنا بمشاركة العربية طالبنا بمنع الأجنبية وهذا غير صحيح . . .

وفات هؤلاء الخبراء السياحيّين أن أرقى الدول وأكثرها تقدماً في مجال السياحة كإسبانيا وفرنسا وألمانيا لم تستعمل في شوارعها غيرَ لغاتها ، ولم تبع دولة منها لغتها القومية بحجّة عيون السائحين !

وزعموا أن العامية هي التي يفهمها الشعب ، وفاتهم أن الشعب يفهم نشرات الأخبار التي تذيعها العواصم العربية بالعربية الفصيحة . . وأن العامية التي يزعمون عاميّة قطرٍ لا يفهم أكثرها العامّة في قطر آخر ، إذ لكل قطر عاميّته . . وفات هؤلاء وأولئك أن المصلحة القومية يجب أن تبقى المقدّمة على ما سواها في كل ميدان ، وأن كل ما ساقوه من دعاوى وحجج ، وكل ما سوف يسوقونه ، لا يرقى إلى قبوله في مقابل استعمال الفصحى التي هي وحدها لغة العرب كل العرب ، تجمعهم وتوحّدهم ، وتوحّد أفكارهم ، وترسّخ انتماءهم ، وتعبّر عن ثقافتهم ، وتميّز هويتهم . وإن كل ما نرجوه من جمع للدولارات من وراء

السياحة ، لا يعادل التنازل عن أمرٍ واحدٍ من ثوابتنا القومية التي نعتزّ بها ونكافح من أجلها ونرفع شعاراتها .

وإن سعينا وعملنا لنجاح مسلسل شعبي ينتشر في الوطن العربي ، كان يجب أن يكون طموحُنا من ورائه التقريبَ بين العاميّة والفصيحة ؛ واستثمار شعبية الفنانين الذين يحلو لأولادنا أن يكرّروا أقوالهم لنشر اللغة الحلوة البسيطة على ألسنتهم .

ألا يرى هؤلاء وأولئك أن اللغة عند غيرنا شيء مقدّس ، لا يجرؤ أحد على المساس بقدسيتها أو مخالفة كلمة منها ، أو مزاحمتها بكلمة من غيرها ، ونحن نزاحمها بالأجنبيات وبالعاميّات ، ونستغني عنها في كثير من المحلات ، وكثير من المواطن الإعلامية والاقتصادية والسياحية . . بل لقد مرّت على بعضنا عصور حاول بعض الناس فيها أن يعوّدوا الناس استمراء الهزء بالعربية ومعلّميها ، واتخاذهم رموزاً للسخرية والضحك كما كنا نشاهد في بعض مسرحيّات نجيب الريحاني ويوسف وهبة وفؤاد المهندس . . !

إن العاقل يقرأ التاريخ للاعتبار بما فيه ، وينظر في الحاضر ليقرّر الأصلح لواقعه وظروفه ، أما التاريخ

فيحدّثنا أن العربيّة حين كانت واحدة موحَّدة بقيت مستعلية على الانقسامات السياسية والحدود القطرية ، وبقيت واحدة في الدول التي قامت في أحضان الدولة العباسية من بغداد إلى الموصل وحلب إلى الشام ومصر إلى المغرب والأندلس . وأما الحاضر فيحدّثنا أن كل دولة عربية لها عاميّتها ، بل إن القطر الواحد يتحدّث بأكثر من لهجة أو لغة عاميّة واحدة ! ويحدّثنا واقع المجتمع العربي المعاصر باتّساع انتشار العاميّة خارج إطارها وفي مواطن الفصحى في كثير من الفضائيات، في البرامج والحوارات والمقابلات والندوات على حين أن الحاضر أيضاً يحدثنا أن الدول التي ترعى لغتها، وتقدّر مصالحها كفرنسا مثلاً أصدرت قراراً يحظر استخدام اللهجات المحليّة حرصاً على التجانس القومي كما جاء في القرار ! ونحن العرب الذين ندّعي التمسّك بالقومية العربيّة نتخلّى عن المظهر الواحد والوحيد الباقي لنا من رموز وحدتنا القومية وهو هذا اللسان المشترك . وإن العاميّات ليست خطراً يباعد ما بين الأقطار العربية فحسب ، بل هي خطر يفرّق أبناء المجتمع الواحد ؛ فليست لانشعاب العاميّة وتفرّعها وانسياحها حدود تقف عندها ، وقد نبّه

التربويّون وعلماء الاجتماع على أن انعدام اللغة المشتركة وكثرة اللهجات في المجتمع يُؤدي إلى مخاطر اجتماعية ، وإلى خلق اختلافات في الأفكار والمواقف ، وأكّدوا أن التربية الوطنية لا تقوم بها إلا اللغة الأم ؛ لأنها هي وحدها التي تُكسب الطفل والمعلِّم عادات مجتمعه في التفاهم ، وتمنحه الآلية المشتركة في أسلوب التفكير وتوجيه السلوك ووحدة التعبير المألوف في بيئته ومجتمعه .

إن اللغة الأم تعلّم التفكير والتعبير والتعايش ، وهي الأهداف التي يجب أن نسعى إليها ، وهي التي يُقاس بها نجاح الطرائق التربوية الوطنية .

إننا نعلم أنه لا لغة لدى الإنسان إلا إذا كان لديه فكر ، ولا فكر لديه إلا إذا دلّت عليه اللغة ، ولو كانت لغة داخلية بينه وبين نفسه ، إن الفكر هو اللغة الصامتة ، وإن اللغة هي الفكر الناطق ؛ إنها تصدر عنه ، وإننا نفكّر بها ، ونُحلّه فيها حتى تكون هي وعاءَه والقالب المعبِّر عنه ، ويكون هو المادّة التي يمتلئ بها ذلك الوعاء حتى يتّحدا !

وما دامت اللغة هي قالب الفكر ، وما دامت كلماتها

وعاءه ، فلن يستطيع أحدنا أن يفكّر أو يعبّر إلا في حدود ما يملك من قوالب ، أو ما تقدّمه له اللغة من كلمات ، وعلى هذا فالإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى ما حوله وإلى الكون وإلى الخلق كلّه إلا من خلال الكلمات ، فإذا نظر إلى ذلك من خلال الكلمات التي ينظر من خلالها قومه اتّحدت المفاهيم والأفكار ، واتّحدت من ورائها المواقف والسلوك ، وإذا نظر إلى ذلك أو عبّر عنه بكلمات من غير لغته اختلف إدراكه لما ينظر إليه عن إدراك قومه .

إن ما نعبّر عنه في عربيّتنا بكلمات (الله) و(الجهاد) و(الصَّحابة) و(الصديق) مثلاً لا يمكن أن تعبِّر عنه كلمات من لغة أخرى .

إن اللغة وسيلة الفكر وقالبه وصورته ، وفيها منه إيحاءاته وإشعاعاته المستمدَّة من حياة الكلمات عبر تاريخها الذي هو تاريخ الأمة .

ولقد وازن كثير من العلماء بين خصائص اللغة وخصائص الأمة الناطقة بها وقرنوا بينهما ، ورأوا في أساليب التعبير صورة لأساليب التفكير ، وهذا يذكّرنا بقول عمر بن الخطّاب : « من تعلّم لسان قومٍ أمن

مكرهم » ، ويجعلنا نفهمه على حقيقته بما فيه من وعي عميق بحقيقة اللغة ووظيفتها وطبيعتها . وقد عبَّر عن ذلك « هردر » فقال : « كل أمة تفكّر كما تتكلّم ، وتتكلّم كما تفكّر » !

ولغة الأمة مستودع لتجاربها التي تنتقل عبر كلماتها وأساليبها من جيل إلى جيل ، ولا يدرك أبناؤها ما ترمي إليه من أبعاد المعاني الإنسانية والدينيّة والجمالية إلا بالقدر الذي تتسع له كلماتها اللغوية بقوالبها ومحتوياتها ، وغير خافٍ أن القوالب تختلف من لغة إلى لغة ، كما يختلف محتواها ضيقاً وسعة وإشعاعاً وإيحاءً وبذلك تكون اللغة الأم ، أعني اللغة القومية المشتركة ، هي الوسيلة للخلاص من آثار الغزو الفكري والعقدي ، ومن التدخّل الأجنبي الضاغط عن طريق اللغة وما تحمله كلماتها وتوحي به من تشويش فكري وديني وأخلاقي لتفكيك العلاقات الأسرية والاجتماعية .

إن اللغة القومية المشتركة هي السياج لحماية الوحدة الوطنيّة الصادقة ، ولسد الطريق على عوامل التجزئة وتغريب حياتنا العربية التي يراد لها أن تصبح قل : غربيّة ، قل : أمريكية ، قل أي شيء إلا أن تبقى عربية !

إن تغريبنا بل أمركتنا لم تعد سياسة خفيّة ، بل طغت وعتت واستعلت بوقاحة ، ونصبت نفسها قاضياً وحاكماً ، ومنحت نفسها حق تصنيف الأمم والشعوب والأفكار ، فهؤلاء إرهابيّون ، وهؤلاء أصوليون ، وهؤلاء شرّيرون ، ولبست من الأزياء وحملت من الأسماء ورفعت من الشعارات ، ما وصلت به إلى البنى الاجتماعية والأسرية تريد تفكيكها وسلخها عن كل ما يتصل بتقاليدنا أو إسلامنا أو ثقافتنا . . إنها تريدنا جزءاً من الحياة الغربية في كل شيء ! على أن حماية ثقافة الأمة وهويّتها ولحمتها الوطنية ووحدتها القومية لا تعني الانغلاق وعدم الانفتاح أو عدم الاقتباس ، وإنما تعني عدم التبعيّة وعدم الذوبان .

وجدير بالذكر هنا أن الكثيرين يدافعون عن ضرورة تعليم الإنكليزية بكونها أصبحت اللغة العالمية ، وعوضاً عن أن يكون ذلك مدعاة لهم إلى التفكير بما يؤدي إلى الحدّ من انتشارها ومزاحمتها للعربية ، يتخذون من ذلك حجّةً لتشجيعها وتأييد انتشارها ، كأنها لغة آبائهم وأجدادهم ، أو كأنها لغة قوميتهم أو دينهم !!

إن الإنكليزية ومن يقوم على رعايتها ونشرها يذيع

في العالم أنها اللغة العالمية بلا منازع ، وقد شاع هذا الوهم المبالغ فيه ، ولا بدّ أن نقف عند هذه المقولة المنتشرة لنقول مع صامويل هنتغتون في كتابه « صدام الحضارات » : إن الإنكليزية كلغة ثانية تدنّت ما بين عامي ١٩٥٨ و١٩٩٢ من ١٠٪ إلى ٦,٧٪ ، وإن ٩٢٪ من سكان الأرض ليست الإنكليزية هي لغتهم الأولى ، إنها لغة الاتصالات في العالم ؛ يتكلمون بها في مصالحهم المشتركة ، ولكنهم لا يتكلمون بها في دولهم وأوطانهم .

وإن للدول القوية وسائلها في اقتحام الدول الضعيفة وما تسمّيه بالدول النامية للسيطرة عن طريق اللغة على بيوتها وشركاتها الاقتصادية والتجارية ، ثم على ثقافتها وعلى حياتها الاجتماعية ونشر عاداتها وأساليب حياتها وطراز معيشتها للهيمنة على الأمة وتذويب خصوصيتها ومحو معالم هويّتها .

ولما كانت الأمة إنما تتميّز أول ما تتميّز بثقافتها ، والثقافة عمادها عقيدة ولغة ، اتجه الهجوم علينا نحو هاتين الدعامتين ، فكان الهجوم على العقيدة يتجلّى في شبهات تثار وتشكيك لا ينتهي ، كما يتجلّى في جعل الناس يعيشون حياة بعيدة عن السلوك الإسلامي في

تقاليدهم وعاداتهم ، ويغرقون في طراز معيشة ليس لهم فيها من الإسلام غيرُ اسمه . وأما الهجوم على اللغة فيتجلّى في الطعن فيها ، وتوجيه التُّهم إليها ، ثم محاصرتها في وطنها بتضييق رقعة استخدامها . . والتمهيد للأجنبية من جهة وللعامية من جهة ثانية لتحلا محلّها بحقّ وضرورة أم بغير حق ولا ضرورة ، حتى باتت بعض الجامعات في بعض بلاد العرب لا تقبل طلباً للعمل فيها ، ولو كان الطالب أستاذَ اللغة العربية ، إلا إذا قدّم طلبه بالإنكليزية وكان هو نفسه متقناً للإنكليزية كتابة وكلاماً !!

إن الذي يجهل أن اللغة نفسها ثقافة ، وأنها وعاء للثقافة ، وأنها هويّة ورمز للهويّة والانتماء ، ثم يتخلّى عنها كمن ينسلخ عن أمّته ، إنه في أميّة ثقافية لا تقل سوءاً عن الأميّة التي يجهل صاحبها فك الحروف ـ كما يقولون ـ أي يجهل القراءة والكتابة ، إننا في حاجة إلى توعية تحارب الأميّة الثقافية كتلك التوعية التي تقوم بها هيئات محو الأميّة !

إن التوعية اللغوية في حاجة إلى وضع سياسة لغوية تشمل كثيراً من الكتّاب والإعلاميين ، كما تشمل الناس

عامّة ، توعية تغرس حبَّ اللغة والثقافة العربية والاعتزاز بها . إننا في حاجة إلى سياسة لغوية تُخرِج الوعي اللغوي القائم على الإيمان باللغة العربية وثقافتها والفخرِ بها والغيرة عليها من حجرات المجامع اللغوية والجامعات والمراكز المتخصّصة إلى المجتمع ليكون وعياً لدى أبناء الأمة كافّة . إننا نريد خطّة لغوية تجعل أبناء الأمة كافة يؤمنون بما للغة من أثر في الحياة بكونها عنصراً فعالاً وبنَّاءً في تكوين الشخصية العربية .

إنها دعوة إلى انفتاح اللغويين على الحياة الاجتماعية لكل طبقات الشعب ، ولا تؤتي هذه الدعوة أكلها وتحقق غاياتها ما لم يدعمها إعلام صادق ، ووعي قومي سليم ومخلص ، وسياسة لغوية جادّة .

على أننا حين ندعو إلى وضع سياسة لغوية جادّة لا ندعو إلى تسليط اللغويين على ألسنة الناس وأقلامهم ، ولا ندعو اللغويين أنفسهم إلى الوقوف في وجه التطوّر اللغوي ، وهم لو أرادوا ذلك ما استطاعوا ، ولكننا ندعوهم إلى التدخل الحكيم في بيان منزلة اللغة في حياة الأمة ، وتوجيه استخدامها الاستخدام المقبول ، بل ندعوهم إلى أن يسبقوا التطوّر

اللغوي ، ويمهّدوا له ويكونوا السبّاقين إلى التخطيط لمجراه والترشيد لاتجاهه حتى لا يسبقهم ، فإنَّ سبقه لهم يجعله عشوائياً ويجعله غالباً لهم يصعب عليهم منعُه أو تحويل مجراه ، إنَّ ما شاع من خطأ وما انتشر من مصطلح دخيل لم تستطع قرارات المجامع واللجان الجامعية أن تقف في وجهه ، وأن تحدّ من استخدامه وانتشاره على حين أن ما سبق اللغويون إلى وضعه مبكراً شاع وانتشر حتى على ألسنة الذين تردّدوا في قبوله أول الأمر وأمسكوا أقلامهم دونه ، وإن المئات من التعبيرات اللغوية والألفاظ المعرّبة والمصطلحات التي يستعملها الناس اليوم لا يدرون أنها لم تكن موجودة ولا معروفة قبل مئة سنة ، وأن اللغويين سارعوا إلى وضعها تلبية لحاجة جديدة أو متوقَّعة ، فتلقّفها الناس واستخدموها وصقلتها الألسن والأقلام ، ومن ذلك على سبيل المثال كلمات : مفوَّض (قوميسيير) ، آذِن أو بوّاب (نوبتجي) ، فرَّاش (أوده جي) ، حاشية (دركنار) ، نفقات السفر (خرج راه) التقرير الطبي ، الطابع ، إضبارة ، ملفّ ، مدفأة ، اللجنة ، الهاتف . . .

إنها كلمات وضعتها أو عرّبتها لجان التعريب عقب

جلاء الأتراك عن بلادنا وانتشرت ، ولو فعلت كل حكومة عربية ما فعلته حكومة الملك فيصل سنة ١٩١٨م على يد الحاكم علي رضا باشا الركابي حين تسلّم الحكم فأصدر عدداً من القرارات التي أعادت إلى الأمة عروبتها ولغتها ، ولو يتجاوب الناس مع نداءات الإصلاح اللغوي كما تجاوب الشعب العربي في الشام في ذلك العهد لتغيّر وجه العربية في بلاد العرب .

إن الثقافة العربية لن يكتب لها النموّ والازدهار ما لم تعبّر عنها لغة قادرة على البقاء والتطوّر والنماء ، والناطقون باللغة هم أصحاب المسؤولية وأصحاب المصلحة في تطوير لغتهم وتنميتها ، ولا بدّ لهم من وضع خطة للتنمية اللغوية أسوة بما يخططون للتنمية في الميادين الأخرى من ميادين حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتعليمية .

نحن اليوم في حاجة إلى تشريع يكفل للوطن العربي « الأمن اللغوي » . إن التخطيط يتوجّه دوماً إلى الاقتصاد ، وإن الحديث عادة يتناول الأمن القومي ، ولا بدّ أن ندرك أن الأمن اللغوي طريق إلى الأمن القومي ؛ لأن اللغة هي عماد القومية وهي سياجها لذلك

اشتدّ الهجوم عليها والطعن فيها ، وكلما زادت الهجمة على العرب والعروبة أمةً ووحدةً وسياسةً وقوميةً زاد التشجيع للغات الأجنبية والعاميّة ، وزاد تهميش العربية وإزاحتها ، ونحن نرى ذلك في الحياة العربية المعاصرة في المجتمع وفي الإعلام .

إننا في حاجة إلى بعث العزَّة لدى المواطن بلغته والفخر بتراث أمته ، إننا نريد مواطناً واعياً بمنزلة لغته وأثرها الخطير في حياة أمته ، ولو لم يكن مالكاً للغة أو متقناً لها . إن الشعب المسلم يتمتّع بوعي ديني لا يسمح لأحدٍ أن يمسّ قداسته مع أنه لا يعرف الكثير من أحكام الفقه وأصوله .

لقد أصبح في الجزائر مجلس أعلى للغة العربية تابع لرئاسة الجمهورية ، يتابع قضايا اللغة ويتولى التوجيه بشأنها .

وأصبحت في إمارة الشارقة جمعية لحماية اللغة العربية منحها الحاكم في ٢٨/ ١١/ ١٩٩٩م صفة المرجعية اللغوية وحق مراقبة التنفيذ وملاحقته . وكذلك صدر في مصر قرار جمهوري في ٣١/ ٣/ ٢٠٠٩م يجعل قرارات مجمع اللغة العربية في

شؤون اللغة ملزمة للجهات العامة ووحدات الإدارة المحليّة .

ونحن نطالب بتشريع يحمي اللغة ، ولا يحميها شيء ولا جهة لا تملك صفة الإلزام . إننا نريد تشريعاً :

يحمي لغة الأطفال من التشويه الإعلامي .

ويحمي الأسواق والشوارع من سيادة اللغة الأجنبية .

ويحمي الإعلام من طغيان العاميّة ويجعلها محصورة في برامج معيَّنة بعيداً عن المقابلات والحوارات والأحاديث والبرامج الجادّة .

ونعجب لصمت الجامعة العربية ، وهي الجهة الرسمية المسؤولة عن التصدّي باسم الدول العربية لما يمسّ وحدة الأمة وقوميّتها وثقافتها ، كيف لا تعترض لجعل اللغة الثانية في الشهادة الثانوية الفرنسية إحدى اللغات العاميّة في أفريقيا أو مصر أو المشرق العربي بعد أن كانت العربية الفصحى هي اللغة الثانية ؟! وكيف تفتتح معهد (أكاديمية) للغة الأمازيغية في الوقت الذي تصدر فيه قراراً بحظر استعمال اللهجات الفرنسية المحليّة حفظاً للوحدة القومية للأمة الفرنسية !؟

لقد قرأت في إحدى المجلات أن بعثة غربية وصلت منذ أشهر إلى الإسكندرية ، وبدأت تتصل بجهات إعلامية فنيّة تغريها بمبلغ ضخم لإنتاج مسلسلات للأطفال على منوال افتح يا سمسم بشرط أن تكون باللغة العاميّة ! ولست أشك أبداً أن وراء هذا العرض الفنّي جهة خارجية من أعداء العرب . كما لا أشك أبداً أن مثل هذا العرض لا يمكن أن يقدَّم في غير بلدٍ عربيّ من البلاد التي تمنع استخدام اللهجات ولا تسمح بنشر لغة غير لغتها الرسميّة الواحدة كما هو الأمر في فرنسا أو ألمانيا أو الصين أو حتى إسرائيل .

إذا أراد العرب أن يكفلوا للأجيال القادمة سيادة صحيحة ، فلا بدّ أن يكفلوا لهم السيادة اللغوية ، ولا بدّ في سبيل ذلك من التخطيط لسياسة لغوية عربية في جملة خططنا التنموية أو التربوية ، وإلا فالخطر يهدّد لساننا وهويّتنا .

إن السكوت لم يعد جائزاً ، ولقد أصبح رفع الصوت واجباً وطنياً وقوميّاً لنطالب النخبة المثقفة والواعية من المسؤولين المشرّعين في البلاد العربية ؛ ولنطالب النقابات والاتحادات الواعية ، بوضع اللغة العربية

موضعها الذي تستحقه في خططها وحياتها وممارستها وتشريعاتها .

وإنني لأختم حديثي بأن في العربية نفسها ، وفي وعي المخلصين من أبنائها ما يحملني على تفاؤل لا يأس معه ، فلقد مرّت العربية في تاريخها بمثل ما تمرّ به اليوم ، وارتفعت شكوى اللغويين من تفاصح أهلها كما يتعاجم اليوم بعض أهلها ، وكما يئدونها اليوم تحت أجنبيّ وعاميّ . . ولكنهم وقفوا وتجاوزتهم ، وبادوا وبقيت ، وستتجاوز الآخرين اليوم وستبقى بعدهم حيّة مشرقة ، يتجدّد شبابها بإذن ربّها وهمّة المخلصين من أبنائها وبما أوتيت من خصائص القدرة على التوليد والاشتقاق ، وعلى الاتساع في التعبير والتنويع في النظم والتركيب ، وبما أثبتته من قدرة على استيعاب العلوم والفلسفة أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، وبما أظهرته من قدرة على مواكبة العصور والامتداد مع الزمان إذا واكب العرب الناطقون بها عصرهم وعاشوا زمانهم ، ولم يتحجّروا على التمجيد لماضيهم والتمنيّ لمستقبلهم ، فالأمر ليس بالتمنّي ولا بأمانيّهم ، ولكن حسبه أن يكون استلهاماً لروح الماضي وعملاً جاداً لبناء

المستقبل قائماً على تخطيط علميّ يقوم به عرب مخلصون لعروبتهم وعربيّتهم ، وليس تخطيطاً نفخر بأننا استوردنا له خبراء أجانب ، كالذين يخططون لسائر شؤون حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتعليمية !!

ولا بدّ قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كلّه ، من قرار سياسي حازم ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

لقد سمعنا السيد رئيس الجمهورية يصدر توجيهاته للاهتمام باللغة العربية ويوليها رعاية سيذكرها له التاريخ .

وإننا لنتمنّى على لجنة التمكين للغة العربية أن تسأل كلاً من وزارات الدولة ومؤسساتها عما قامت به من ترجمة عملية لتلك التوجيهات القومية الحكيمة فيما يقع تحت يدها من إدارات ومؤسسات ، وما أصدرته من تعليمات لتطبيق توجيهات السيد الرئيس ، فنحن نريدها سياسة دائمة وعملاً مستمراً ومراقبة يقظة ، ونريد للجنة أن تبقى العين الساهرة التي ترصد أصداء تلك التوجيهات ونتائجها في أرجاء الوطن ، ليبقى حاكم الشام قدوة لحكّام العرب ، ولتبقى سورية ـ كما كانت ـ رافعة راية العروبة بثوابتها القومية وثقافتها اللغوية .

اللغة العربية حصن الأمّة

كانت العربية وما زالت تواجه الكثير من الهجوم والطعن والإهمال ومزاحمة الضرائر من عاميّات وأجنبيّات . وليس ذلك بغريب من أعدائنا لأنهم أعداء، ولأنهم يدركون حقيقة اللغة ومدى أثرها في تحصين الأمة وشدّ أسرها . ليس ذلك من عجز في اللغة نفسها فقد أثبتت قدرتها منذ وسعت كتاب الله ، واتّسعت لعلوم الحضارة يوم كان أهلها يصنعون الحضارة . وأما الإهمال من أهلها فيما أرى فمن عدم إدراكهم منزلتها في حياة الأمّة ، ومن تقصير المختصّين في نشر الوعي اللغوي السليم ، وإن كنّا اعتدنا أن نلقي اللوم في أكثر مشكلاتنا على أعدائنا وعلى الاستعمار تارة ، وعلى اللغة نفسها تارة أخرى ، مبرّئين أنفسنا من كل وزر أو تقصير .

اللغة كالكائن الحيّ ؛ متفاعل مع الحياة بتفاعل الناطقين بها مع الحياة ، بقوّتهم تقوى وتحيا وتنتشر ، وبضعفهم تضعف وتنحسر .

واللغة ذات جوانب متعدّدة ؛ فهي حادثة طبيعية فيزيائية لأنها أصوات ، وهي حادثة نفسيّة فكريّة لأنها الثوب الذي يلبسه أو يظهر فيه الفكر ، وهي حادثة اجتماعية لأنها وسيلة الفهم والإفهام بين الناس . . وهكذا كثرت تعريفاتها بكثرة جوانبها ، إذ تناول كل تعريف جانباً منها ، وهي تعريفات لا يكفي واحد منها لبيان حقيقة اللغة ، لكنها لا تعارض بينها ، بل هي متكاملة يتمّ بعضها بعضاً . فهي أصوات يعبر بها الناس عن أغراضهم ، وهي الفكر الناطق ، وهي وسيلة التواصل الاجتماعي ، وهي منظومة عُرفية لرموز تعبّر عن نشاط اجتماعي . . .

وتختلف مواقف الناس من اللغة باختلاف نظراتهم إليها ، وباختلاف الجانب الذي وقفوا عنده منها ؛ **فمن رآها مجرّد أصواتٍ للتعبير أو أداةٍ للتواصل الاجتماعي رأى الأصوات أياً كانت / أي بأي لغة كانت/** صالحةً للقيام بعملها وأداء وظيفتها ، فلا عليه أن يستبدل بلغته لغةً تقوم مقامها . وهكذا كانت مواقف الناس من اللغة مختلفة باختلاف نظراتهم ، واختلاف مدى مبلغهم من العلم فيها وإدراك حقيقتها ، ولم تكن المواقف المنحرفة

كلّها عن سوء نيّة وقصد . لذلك كان على اللغويين والمختصّين أن ينشروا الوعي اللغوي السليم ، ليستبين الناطقون بالعربية أبعادها وآثارها في حفظ ثقافتهم وبناء أمتهم .

لقد هوجمت العربية نظرياً بالطعن فيها صعوبة في قواعدها وإملائها ، وفقراً في المصطلح ، وعجزاً عن مجاراة العصر ، وهوجمت عملياً بمحاولة تغليب العاميّة في كثير من الأقطار العربية ، وملء الصحف والشوارع بها ، وبتغليب الأجنبية ومزاحمتها بها في التعليم العالي وفي مجال الاقتصاد والسياحة . لقد دعا مسؤول في بلد عربي إلى جعل أسماء الفنادق والمطاعم والمحلات التجارية باللغة الأجنبية تيسيراً على السيّاح ! وادّعى آخر أن فرض العربية في الأسواق مضرّ بالاقتصاد والسياحة . ونحن نرى في ذلك قصوراً في إدراك الحقيقة ، وانحرافاً عن الثوابت الإسلامية والقومية ، لأننا حين ننادي بتعريب الأسماء على اللافتات في الشوارع والأسواق لا ندعو إلى عدم الكتابة بالأجنبية عليها . إننا ننادي أن تكون العربية في بلادها مشاركة للأجنبية ، فهل أنا في ذا يالَهمذان ظالم ؟؟!

إننا إذا تمنينا اقتصاداً ناجحاً وسياحة مزدهرة ، فلا يصحّ أن نعادل الجنيهات والدراهم والليرات بالرمز الوطني والانتماء القومي . لقد أصبحنا نسمع أن اللغة الإنكليزية هي اللغة العالمية في التجارة والاقتصاد والسياحة ، وصحيح أنها اللغة الغالبة ، ولكن فرق كبير بين تشجيع ذلك والسير في ركابه وبين الحذر ومحاولة الحدّ من ذلك على نحو ما فعلت بعض الدول الأوروبية الحريصة على لغاتها ، فاتخذ قادتها في قمة عقدت منذ سنوات في برشلونة أن يترك للطلاب في دولهم حريّة اختيار اللغة الثانية بعد لغتهم الوطنية ، بعد أن كانت الثانية هي الإنكليزية ، وأعلنوا أنه يكفي أن يدرس الطلاب دورة مكثفة في ثلاثة أشهر اللغة الإنكليزية في مجال النقل الجويّ والبحري والاتصالات والجمارك ، وهو ما يحتاجون إليه للاتصال بالعالم . ولم تجعل دولة منهم أسماء فنادقها ومطاعمها ومؤسساتها التجارية بأسماءٍ بغير لغاتها .

إنهم شعروا بمقدّمات العولمة التي تريد أن تفرض مع الدولار لغته في الاقتصاد ، وأن تهمِّش اللغاتِ المحليّة والقومية ، لأن ذلك يتبعه تهميش للثقافة ثم

للفكر ثم للمواقف .

الأمة ليست أمّة بمالها، ولكنها أمة بهويّتها الثقافية ، وهويّة الإنسان هي مجموع الصفات الثابتة التي تميّزه من غيره . لكل أمّة عريقة هوية ثقافيّة ، واللغة هي باب الثقافة وعمادها وأداة وحدتها ، ولا وحدة بين الناس إلا إذا توحّدت أو تقاربت ثقافتهم ، وتوحّدت أو تقاربت أفكارهم ، واللغة هي المدخل إلى وحدة الثقافة ووحدة الفكر ، والثقافة والفكر هما العاملان اللذان يمليان على المرء مواقفه ، ومن هنا كانت للأمة ذاتِ الثقافة الواحدة والفكر المشترك مواقف متفقة أو متشابهة . .

اللغة تنسب الإنسان إلى قومه ، والعربية اليوم هي نسبنا إلى قومنا بشراً وتاريخاً ، وإلى أرضنا وطناً وحدوداً ؛ فحدود الوطن العربي اليوم هي حدود الناطقين بالعربية ، وكل شيء ما بين المحيط والخليج مختلف إلا اللسان فهو وحده اليوم مظهر الوحدة .

العربية اليوم هي التي تصلنا بتاريخنا زماناً، وبإخواننا العرب المعاصرين مكاناً ، إنها رابطة بين العرب، وحدود لوطنهم، وسجل لتاريخهم، ورمز لوحدتهم .

فإذا قسَّموا وطننا إلى أوطان وأقطار ، ومزّقوا أرضنا فجعلوا فيها دولاً ودويلات ، أفنقسّم نحن اللغة الواحدة الباقية إلى لغات ولهجات لنستكمل تقسيم الأمة إلى أمم ؟!

العربية وعاء حوى تراثنا ، ثقافتنا ، تاريخنا ، ديننا ، عقيدتنا . لم نعرف ذلك كلّه إلا من خلالها ، إنها أشبه في الأمة بالذّاكرة للإنسان ، إنها ذاكرة الأمّة أفنتخلّى عنها وكلنا يعرف حال الإنسان أياً كان ماضيه إذا فقد ذاكرته !

إن أهم ما تسعى إليه العولمة هو القضاء على خصوصيّات الأمم والشعوب في كل شَيْءٍ ، واللغة القومية من أخصّ خصائص الأمة، لأنها وعاء ثقافتها ورمز استعلائها وتميّزها القومي . وهم يريدون تفريغ هذه الثقافة من مضمونها الروحي والفكري والأدبي والفنّي وحشوَ وعائها بمضمون حداثي إذا لم يكن خاوياً من العروبة والإسلام فهو بعيد عما عرفته أمتنا من فكر وأدب وفنّ، بل هو مصوغ بقوالب لغوية تنكرها العربية لخروجها عما ألفت من أصول .

إذا ربطنا الأحداث بعضها ببعض ، وتركنا المنهج العربيّ الحديث والمعاصر في التصدّي للمشكلات ،

وهو المنهج القائم على عدم التخطيط السابق، وعلى انتظار الخطر حتى يقع، وعلى ردود الأفعال الانفعالية حين يقع الحدث ، إذا تركنا ذلك كله ونظرنا إلى منهج غيرنا في التغلّب علينا فماذا نرى ؟ إنهم لا يبالون أن تتحقق غايتهم بعد خمسين أو مئة سنة !

أليست العولمة كلمة حديثة السنّ في عصرنا ؟ فلننظر إلى التخطيط لتنفيذها كيف ومتى بدأ ؟ لقد بدأت عملياً زحفها فاتحةً أمامها الطريق بالدولار حتى أصبح نقداً عالمياً بل النقد العالمي الذي تبيع الدول به وتشتري ، ثم بدأ اقتصادها يزدهر ويسيطر، وأصبحت لها المصارف وبيوت المال ، ثم ربطت سياستها بها، فلا قروض ولا مساعدات مالية إلا لمن يبيعها موقفه السياسي الممالئ لها ، فخضع لها من خضع، وأبى وصمد من صمد ، وأدخلت اللغة مع الدولار فسادت لغتها حيث ساد ، حتى شعر الكثيرون بالخطر ، فغيّروا الوحدة النقدية كما فعلت أوروبا ، أو فكّوا ارتباط نقدهم بالدولار كما صنع غيرها ، تململاً من أسر القيد النقديّ وما وراءه من تبعات العولمة !

أقول ذلك كلّه وأتحدّث عن التدرّج في زحف الخطر

لئلا نستصغر ما نراه من زحف العاميّة وخلط الأجنبية بالعربيّة تظرّفاً على ألسن فتياننا وفتياتنا . . . دون إدراك منهم لبلوى ستعمّ، ولعواقب ستتلو حين يصبح ذلك كله عادة اجتماعية مألوفة . .

إننا نرى الأمم المتقدمة اليوم تتعصّب للغاتها تعصّباً وصل ببعضها إلى أن أصبحت ذات نزعة عرقيّة لغوية لم يعرفها العالم قبل اليوم . ولو تتبّعنا ما تقوم به ألمانيا وما تقوم به فرنسا لصيانة لغتيهما لعرفنا خطر ما نفرّط فيه نحن اليوم من أمر لغتنا .

دعا فلاسفة الألمان إلى أن يتمسّك الألمان بلغتهم تمسّكهم بأرواحهم !

وعقد الفرنسيون المؤتمرات، وأصدروا المراسيم المتتابعة لحماية لغتهم ، وأقاموا منظمة متحدة للناطقين بالفرنسية، لها أمانتها العامّة ومكاتبها ومراكزها المنتشرة في العالم ، ووضعوا الغرامات على من يستعمل كلمة بغير الفرنسية ، ومنعوا إعلامهم من استعمال اللهجات المحليّة . . . وأما نحن العرب فشعارات قومية وبعضُ صحفنا تنشر بالعاميّة ، وأسواقٌ تغلب عليها العجمة واللغة الأجنبية ، وتدريسٌ في التعليم العالي بغير العربية

في معظم الأقطار العربية ، وليس في العالم كلّه أمة تدرّس في تعليمها العالي بغير لغتها إلا العرب !!

وليس في العالم دعاة إلى الوحدة بعدد الدعاة العرب ، وليس في العالم خطاب يعدل خطاب العرب الوحدوي ، ولا أحزابٌ وحدوية بعدد ما في الوطن العربي من أحزاب وحدوية ، ومع ذلك فما زال العرب مقصّرين في رعاية لغتهم وأداة وحدتهم ، وإن كلّ دعوة إلى الوحدة تبقى ناقصة إذا لم تكن فيها رعاية للغة الجامعة الموحِّدة ، وصيانة لها ، وعمل على تنميتها وجعلها لغة العلم والتعليم . إن جعل العربية لغة العلم يفيد العربية نفسها، ويمحو ما علق بها من كونها لغة أدب وعاطفة وانفعال ، ويُغلِّب في أساليب الناطقين بها أسلوب العلم والمنطق، وهو ما تحتاج إليه اليوم، لأن اللغة العلمية تطبع الفكر بطابعها ، وتعلّمه التفكير المنهجي العلميّ ، إنه شتّان ما بين من يعلّم اللغة فيملأ نفوس الطلبة والشباب بما في تراث الأمة من قيم، وينمي في عقولهم التفكير العلمي، فيجعل من المدارس والجامعات مصانع للرجال والنساء ، وبين من يعلّم اللغة لأنها مقرَّر مطلوب في الامتحان !! لا يهمّه بعد

ذلك كيف تكون اللغة عاجزة على لسانه وقلمه في الحياة، أو سلوكاً فكرياً يسير به على درب أمّته .

حين يكون تعليم اللغة رسالة تصبح اللغة أداة لوحدة الشعور القومي، وتمكين الانتماء إلى الأمة وتراثها وتاريخها .

إن اللغة بكونها أداة تفاهم بين أبناء المجتمع الواحد ، وبكونها وسيلة تفكير وأداة تعبير، تخلق وحدة ثقافية تشكل رابطة لأبنائها الناطقين بها ، وتفرض بعد ذلك سلوكاً متشابهاً فيما بينهم ، لذلك كان الذين يخرجون على نظام اللغة وتقاليدها إنما يمثّلون الشذوذ أو الانحراف عن سلوك مجتمعهم وأمتهم التي وحّدتها اللغة الواحدة الموحَّدة التي تعارفت الأمة على أصولها وتقاليدها عبر تاريخها الطويل .

ونحن لسنا بدعاً بين الأمم حين نطالب بالتمسّك باللغة الفصيحة ؛ فلقد دعا الفيلسوف فخته أمته الألمانية حين غزا نابليون ألمانيا وجزّأها إلى التمسّك باللغة الألمانية الواحدة قائلاً : « إن اللغة تجعل الأمة الناطقة بها موحَّدة مُتراصَّة ، إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان » . ودعت الثورة الفرنسية

في أوائل بياناتها إلى محاربة العاميّة والتمسّك باللغة القومية ، وأذاعت على لسان الراهب غريغوار بياناً قالت فيه : « إن مبدأ المساواة الذي أقرّته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظّف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير كبيرة ، وترك هؤلاء خارج ميادين الحكم يخالف مبدأ المساواة ، فيترتب على الثورة ـ والحالة هذه ـ أن تعالج المشكلة معالجة جذرية، وذلك بمحاربة اللهجات المحليّة، ونشر اللغة الفرنسية الصحيحة بين جميع المواطنين » .

وأنقل لكم شهادة مستشرق فرنسي عاصرناه وعرفناه وسمعناه يتحدث عن العرب والمسلمين، ويتحدث عن الثورة الجزائرية التي عاصرها، إنه جاك برك الذي قال : « إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات ، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا . إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية » .

واللغة ليست ثوباً يلبسه من يريد ويخلعه من يريد ، إنها لغة الثقافة التي تمثّل الأمة ، بل ليست لغتها فحسب ، بل هي فكر من فكرها، وجزء من عقلها وعقل الأمة الناطقة بها ، والثقافة بما تمثّله من فكر وأدب ودين وفنّ هي العقل المشترك والأساس الذي تبنىٰ عليه وحدة الأمة ، واللغة هي النظام الشامل لتلك الثقافة .

ويشهد للغة العرب تاريخها على أنها كانت وحدتها أقوى من وحدتهم السياسية فلقد استعصت على التجزئة وبقيت واحدة موحَّدة حين انقسموا أو تفرّقوا في دويلات عباسية وحمدانية وإخشيدية وفاطمية وغيرها . . .

والعربية الموحَّدة هي وحدها العربية الموحِّدة لأنها تحدّد المفاهيم، وتوحِّد المدركات، وتجسّد الأفكار والقيم وبذلك يتمّ الانسجام فيما بين الناطقين بها . . وفيما بينهم وبين ما حولهم من عناصر الحياة ، إنها توحّدهم عقلاً وثقافة وفكراً وسلوكاً .

إن العربية ظاهرة وحدة وعاملة وحدة ، ولا بدّ أن نسعى إلى تنشيط دورها الوحدوي ، وأن نبتعد بها عن العاميّات المفرّقة، وعن الأجنبيّات المزاحمة، تاركين كلاً منها في مجالها ، جاعلين المصلحة القوميّة العليا

فوق كل اعتبار .

حين أقول إن اللغة المشتركة تصهر الفرد في المجموع، أي تقوّي انتماءه القومي، فإني أعني أنها لطول استخدامها، ولشدّة ألفتها واعتيادها، ولطول ممارسة المرء للتعبير بها عن وجدانه ومواجده ، وعن شعوره وعواطفه ، وعن إيمانه ومعتقداته وأشواقه، وعن أدب أمّته وتراثها ، وعن حاجاته في حواره مع نفسه ومع أهله وأهل وطنه لا تلبث أن تنأىٰ عن الزمان وعن المكان لتصبح شعوراً روحياً يملأ الإنسان اعتزازاً بكل ما تعبّر عنه لغته في حاضره وماضيه ومستقبله، وكأن الفرد إذ ذاك يعيش من اللغة بروح هي روحه وروحُ أمّته في آن واحد ، وذلك هو المعنى الذي نعبّر عنه بالشعور أو الانتماء القومي الذي تغرسه اللغة في نفوس الناطقين بها ، لذلك كانت المحافظة على اللغة محافظة على الجنسية القومية والفكرية والثقافية للأمّة .

وهكذا رأينا في اللغة صورة الفكر، ومرآة الشخصية ورمز الهويّة ، ورأينا الهوية الصفة المميِّزة للفرد ، والصفة المشتركة للأمّة، تعبّر عما يميّزها من خصائص في الفكر والثقافة، وما يكوّنها من علم وعقيدة وأدب

وفنّ ومكوّنات حضارة . ولقد رأينا أن اللغة ذاكرة الأمة وإطار حدودها ومرآة فكرها، ومستودع تراثها، وجامعة أبنائها، ومصنع رجالها بما تغرس فيهم من قيم ومثل وأساليب تفكير ، ورأينا اللغة هويّة تعصم الأمة من الضياع، وتحول دون ذوبانها في العولمة ، وذلك كلّه هو الذي يجعل الهجوم على اللغة شرساً عنيفاً، إبعاداً لها عن التعليم العالي، ومزاحمة لها بالأجنبية في كل مكان وبالعاميّة في الشوارع والأسواق، وإهمالاً لها في بعض الصحف ووسائل الإعلام .

إن الهوية الثقافية للأمة هي التي تحفظ لها وعيها بذاتها وبتاريخها ، وإن اللغة هي عماد الهوية الثقافية المتميّزة ، وهي ما لا تكون الأمة أمةً إلا به ، لذلك كله نقول : إن اللغة حصن الأمة ، والدفاع عن اللغة دفاع عن حصون الأمة، ودفاع عن حدود الوطن .

اللغة مرآة الأمة

« خصائص العربية تحكي خصائص العرب »

تختلف الأمم فيما بينها بكثير من الصفات العامّة والخصائص ، ويختلف الأفراد في الأمة الواحدة فيما بينهم بصفاتهم وخصائصهم ، وكذلك تختلف اللغات التي تنطق بها الأمم بعضها عن بعض بكثير من الصفات والخصائص ، وتختلف المفردات في اللغة الواحدة وتتباين شكلاً ودلالة وقدرة على العمل، وسهولة على النطق، وأداء للمعنى، وبلوغاً إلى الأذهان .

ولقد سمعت وقرأت إشارات كثيرة إلى تلك الصلة الحميمة بين الإنسان ولسانه ، والأمة ولغتها ، مما قاله الفلاسفة والحكماء والأدباء والنقّاد .

فلقد قالوا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه .

وقالوا :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

وقالوا : الأسلوب هو الرجل .

وقالوا : مَن تعلّم لغة قومٍ أمِنَ مكرهم .

وقالوا : تكلَّمْ حتى أراك .

وقالوا : الأمم تتكلّم كما تفكّر ، وتفكّر كما تتكلّم .

وقالوا :

وفي الصمت ستر للعييّ وإنما
صحيفة لبِّ المرء أن يتكلَّما

ورأيت أن أتتبَّع مرامي هذه الأقوال لأقف على مدى ما تعبّر عنه من الحقيقة ، وما نتصف به من صدق . ورأيت أن ذلك لا يتحقق إلا بتطبيقها على اللغة التي أعرف صفاتها وخصائصها ، والأمةِ التي عرفتها في تاريخها ومراحل عمرها ، إنه البحث الذي أنظر فيه من خلال اللغة إلى فكرها الناطق بها، وإلى طبيعته وما يتصف به . وأنظر من خلال العربية إلى خصائص العرب أصحاب اللغة ، لأرى بعد ذلك كله وجه العرب في مرآة لغتهم .

اللغة مرآة المتكلم ، فرداً أو جماعة

نستطيع عن طريق اللغة أن نسبر أغوار النفس الإنسانية ، ونتعرّف على أفكار المتكلم ونزعاته وميوله ومسارب تفكيره ، ومنهجه ووضوحه ، ومدى التزامه المنطق في تداعي أفكاره وتسلسل إيرادها ، وطريقة عرضها .

إننا نعرف الخصائص الشخصية ، وما يتصف به الإنسان من وضوح وصفاء ، وسطحية أو عمق ، وصدق وصراحة ، أو مكر ودهاء ، نستطيع أن نحكم على ميله إلى التعبير المباشر الصريح ، أو ميله إلى الاكتفاء بالإشارة والتلميح دون المجاهرة والتصريح .

إننا من لغته وأسلوبه نستطيع أن نطلق عدداً من الأحكام على عدد كبير من صفاته النفسية والفكرية والشخصية ، وأن نعرف مدى لطفه ودماثته ومجاملته ، أو مداهنته، أو صلابته وجفائه .

إن اللغة تعبير عن الفكر ، ووعاء له ، وقطعة منه ؛ تلتحم به حتى تشارك فيه وتصبح جزءاً منه لا يكاد ينفصل عنه ، فالإنسان إنما يفكّر باللغة ، ويعطي ألفاظها مواضعها في كلامه وعلى لسانه على وفق تسلسل

أفكاره ، حتى يكون ترتيب الكلمات في الجملة على وفق ترتيب الأفكار في الذهن، وبذلك تكون اللغة هي فكره الناطق ، ويكون فكره هو اللغة النفسية الصامتة .

ولعل أبلغ ما يدلّ على هذه الصلة القويّة بين عقل المرء ولسانه، ما عبّرت عنه اللغة العربية حين جعلت الدلالة على عملِ كلٍّ منهما وعلى وظيفته في قالب لغوي واحد ، في كلمة واحدة عبّرت بها عن كلٍّ منهما فقالت : هو (المنطق) !

أليس المنطق هو العلم الذي نعبّر به عن عمل العقل في صيانة الفكر من الخطأ ؟ وهو هو الذي نعبّر به عن الكلام وعن اللغة حين جعلناه مصدراً ميمياً بمعنى النُّطق ؟ وبهذا المعنى استعمل في كتاب الله الكريم على لسان سيدنا سليمان الذي قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل/ ١٦] .

إن لغة العربيّ مرآة لفكره وقلبه ، فإذا كان صادقاً في عروبته انتساباً وولاءً ، سليماً في فطرته خُلُقاً ولساناً ، كان لسانه صورة عمّا في نفسه ، حتى قال قائلهم : إذا تكلّم العربي قرأت في كلامه ما كتب في صحيفة قلبه :

وفي الصمت ستر للعييّ، وإنما
صحيفة لبّ المرء أن يتكلّما

وفي هذا المعنى قيل : تكلَّمْ حتى أراك !

ولا شك أن الذي عاش منّا في الغرب، وتعلّم اللغة الأجنبية وأتقنها ، وأصبح ذا ثقافة أجنبية غربية ، يعرف من أساليب الغربيين في التعبير وفي التفكير ما لا يعرفه البعيد عن تلك الثقافة .

أذكر أن إحدى الجامعات العربية التي كنت أدرّس فيها عزمت على إصدار بيان في مناسبة قومية تبيّن فيه رأي المثقفين العرب في تلك المناسبة ، فشكَّل رئيس الجامعة لجنة من رئيس قسم اللغة الفرنسية ورئيس قسم اللغة الإنكليزية وجعلني معهما ممثلاً لقسم اللغة العربية ، واتفقنا آنذاك على أن أضع مسوّدة البيان وأعرضه على اللجنة ، ولمّا قرأته عليهما بعد يومين، نظر أحدهما إلى الآخر ثم توجَّها إليّ معاً قائلين : يا أخي ، إننا فهمنا من رئيس الجامعة أنه يريد توجيه البيان إلى الغرب إلى أوروبا ، وأنه سيلقى ويذاع في مؤتمر يعقد هناك ، فقلت : حسناً ، أنتم تترجمونه ، فقالا : إن ما كتبته يصلح أن يوجّه إلى العرب ، وأن

يخاطب به الشعب العربي ، وأما الغربيّون فلهم أسلوبهم ، ولهم طريقة تفكيرهم ، وهم لا يفكّرون كما يفكر العرب ، ولا بدّ أن نخاطبهم بلغتهم لا بلغة عربية الأسلوب مترجمة إلى لغتهم ، إننا يجب أن ننشىء البيان إنشاء بلغتهم وبأسلوب خطابهم ، وهكذا كان .

ولقد عرف ذلك منذ القديم وأصاب الحقيقة الخليفة الذكيّ الذوّاقة عمر بن الخطاب فقال : من تعلّم لغة قوم أمن مكرهم ! إنه لا يعني أنك إذا سمعت الأجنبي عرفت مقصده ، أو عرفت ما يتحدث الأجانب عنك ، ولكنه يعني أن معرفتك لغتهم تؤدي بك إلى معرفة طريقة تفكيرهم . وصحيح أنك إذا عرفت طريقة تفكير خصمك ، عرفت وتوقّعت رِدّة فعله وما سيتخذه من مواقف .

ولنعد إلى لغة العرب نستنطقها عن أحوال أهلها الناطقين بها ، أو عن أحوالها المحاكية لأحوال أهلها لتحكي لنا كيف كانت مرآة للأمة في حياتها العقلية والاجتماعية والأخلاقية ، كما كانت مرآة للإنسان العربي الفرد في تفكيره وسلوكه وشخصيّته .

في العربية أصول ثلاثية نسميها الجذور ، وهي

حروف تتكون أو تتشكل منها مجموعة كلمات ، نسمّي تلك الحروف بالجذور أو الأصول ، ويسمّيها ابن فارس بالمقاييس ، ونسمّي المفردات التي تتشكل منها بأبنية أو صيغ مختلفة بالمشتقّات .

ونجد تلك الأحرف الثلاثة تدور مع الكلمات كيفما دارت ، ومهما تختلف أبنيتها أو تتصرّف ما بين أفعال وأسماء ؛ فالعين واللام والميم مثلاً ثابتة في كل من عَلـم ، يعلـم ، عـالِـم ، عـالَـم ، معلـوم ، عـلامـة ، علاّمة ، إعلام ، استعلامات ، معلومات ، ولكل من هذه الكلمات معناها الخاص بها ، ولها كلها ـ كما لكل مجموعة من الكلمات تشترك بالأصول الثلاثة ـ معنى عامّ يجمعها .

وهي في اللغة صورة لما في الحياة العربية من اختلاف الأفراد في الأسرة الواحدة بصفات فردية يتمايزون بها ، وفي اجتماعهم جميعاً بعد ذلك باسم واحد هو اسم الأسرة واللقب الذي يجمعهم كما يجمع الأصل الثلاثي مشتقّاته .

وكما يختلف الأخ عن أخيه في الأسرة الواحدة شكلاً ، يختلف المشتق عن أخيه في الصيغة أو البنية أو الشكل .

ونتابع الأفراد وأسرهم في حياتهم الاجتماعية فنراهم كمفردات لغتهم تفرّقاً واجتماعاً؛ يجتمع الإخوة والأخوات في الأسرة العربية في خباء أو في بيت واحد كما تجتمع المشتقات تحت عنوان أسرتها الذي هو الجذر اللغوي في الباب الواحد في المعجم . ولعل هذا يظهر حين نوازن بين العربية وغيرها أو حين نقرنها بغيرها من اللغات الأجنبية !

نجد : الأخ والأخت والإخوة والإخوان والأخوّة كلها في المعجم في بيت (أخو). ونجد : الابن والابنة والبنت والأبناء والبنوّة كلها في بيت (بنو). وهكذا يجتمع أفراد الأسرة العربية في المجتمع كما في اللغة في بيت واحد يضم الجميع، وأين هذا من صورة المجتمع الغربي الذي تحكي لغته بتفرّق جذورها في معجمها تفرّق أبنائه في مساكنهم وتباعدهم في حياتهم ! فأين مكان Frère من مكان sœur ؟ في الفرنسية ، وأين مكان Brother من Sister في الإنكليزية ؟

وأنظر إلى كلمتي (أب) و(ابن) في العربية فألمح في (الابن) زيادة حرف على كلمة (الأب) ، وكأنها زيادة في البنية اللغوية للابن تحكي زيادة أو امتداداً في اللفظ

يحكي امتداداً لحياة الأب في حياة الابن .

لقد عرف عن العرب عنايتهم بأنسابهم ، وعرف عنهم تميزهم بين العربيّ القح أو المحض وبين المُقرِف والهجين والدَّعيّ . .

وعرفت عنهم حياة اجتماعية راقية في إنسانيّتها ، لا يتفرّق فيها أبناء الأسرة الواحدة ، ولا تتباعد مساكنهم ، فإن تباعدت جمعتهم أنسابهم وظلت الأبوّة والبنوّة والبطن والعشيرة والقبيلة جامعة لهم ، وكذلك تجتمع لغتهم في أسر لغوية تجمع بينها أنساب الجذور والأصول اللغوية التي عبّر عنها ابن فارس في معجم المقاييس .

لقد كانت الأُرومة أو الجذر أو الأصل جامعاً للعرب نسباً وانتماء قوميّاً ، كما كانت الجذور في لغتهم جامعاً للمفردات والألفاظ نسباً لغويّاً .

لقد عاشت الألفاظ العربية في مجموعات وأسر ولّدها الاشتقاق من جذر واحد ، كما عاشت الأمة العربية في بطون وقبائل يجمعها النسب إلى جَدّ واحد . وتباينت الكلمات بالصيغ والأشكال ، وحملت كل منها أحرفاً هي هويّة انتسابها إلى الجذر ، كما تباين الأفراد

بأسمائهم وأشكالهم ، وبقي النسب دليلاً على وحدة الأصل .

وكما لم يمنع النسب أصحابه من السياحة والانتشار في الأرض ، والانفتاح على العالم وعلى ثقافاته ، كذلك لم يحل الانتساب إلى الجذر اللغوي دون النماء والاشتقاق والتوليد ، ولم يبق محصوراً في بيئته العربية بل امتزج بالثقافات ، واحتكّ باللغات ، فأخذ وأعطى ، وولّد وعرّب ؛ فكان النماء مع المحافظة على الأصل ، وكان الاختلاط مع الاحتفاظ بالنسب ، وكان الاتساع والازدهار مع الارتباط بالأصول والجذور . . وتلك هي الصفات التي تكفّلت للعرب ولغتهم بالخلود .

وكذلك كانت العربيّة مرآة عكست صورة الأمة في أساليب تفكيرها ، وفي بيان مواقفها من العقائد والمذاهب ، والعواطف والمواجد .

وكانت اللغة الحبل أو الرباط الفكري المتَّصل بين ماضي الأمة وحاضرها ؛ فحملت إلينا أخبار الرجال حتى كدنا نراهم فيها، ونسمع أصواتهم في ألفاظها ، وحملت إلينا أحداث التاريخ حتى عشنا معهم فيه وكأننا عاصرناه . . وكان كل مقطع من مقاطعها ، وكل نصّ

من نصوصها ، وكل بيت من شعرها ، مخزناً أو مَعيناً لا ينضب من المعاني والدلالات ومن الرموز والإيحاءات !

وإذا وقفت مع ألفاظها ومفرداتها حدّثتك بأسرار القُرب فيما بينها ، فالجَوْر مثلاً هو الظلم ، وجار عليه : ظلمه . وأما جارُه فهو مَن كان مجاوراً له أو مقيماً في جواره ، وعليه فإن معنى أجاره دفع عنه الظلم وكان مجيراً له . وهكذا كان ما بين جار وأجار بُعدُ ما بين جائر ومجير !

وإذا وازنت بين الجهاد والصراع والكفاح والنضال رجحت الجهاد لأنها من الجَهد والجُهد ، وهو بمعنى الطاقة أي أقصى ما في الوسع ، لذلك قيل لبلوغ أقصى الغاية في الدرس أوالعمل : الاجتهادُ ، وللغاية في كبح جماح النفس ، أو مقاتلة العدوّ : المجاهدة .

ونقول للرجل : امرؤ ، وللأنثى امرأة ، وذلك لما يتصف به كل منهما من المروءة والإنسانية .

ونقول لكل ما هو إلى اليُسر والسهولة : سهل ، فالأمر سهل أي يسير ، وللأرض سهل إذا خلت من الوعورة وسهُل السير فيها .

ونقول لكل ما يسترك أو يخبّئك : خباء ، وهو من صوف أو وَبَر ، فإذا كان مبنيّاً ثابتاً فبناء ، ولما كان للمبيت ليلاً أو للسَّكن فهو بيت ومسكن .

وكذلك مئات الكلمات التي تلقي جذورُها الظلالَ على معاني مفرداتها ، وتكاد ألفاظها تشفّ عن دلالاتها . وقد توهم بعض الألفاظ بالتباعد بعضها عن بعض كالأشجار الوارفة الظلال ، والمشاجرات الناشبة بين المتقاتلين، على حين أنها واحدة تعود جميعها إلى الأشجار أي الاشتباك ؛ فكما تتداخل أغصان الأشجار وتشتبك ، كذلك تتداخل أيدي المتقاتلين وتشتجر سيوفهم ، فإذا الصورة واحدة في الأمرين ، وهو ما استشمره البحتريّ حين قال :

شواجرُ أرماحٍ تُقطّع بينهم
سواجرَ أرحامٍ مَلومٍ قَطوعها

وانظر إلى لغة العرب بعد ذلك وهي تمثّل وضوح الفكر حين تعطي للشيء الواحد عشرات الأسماء، لأنه يتصف بعشرات الصفات ، فيكون له في حالة اتصافه بصفة اسم لا يكون له حين يتصف بغيرها : كالسيف الذي هو الحسام حين يحسم ، والبتّار حين يبتِرُ ،

والفيصل حين يفصل ، والعضب حين يقطع . . . وهكذا .

وانظر إلى الإنسان الذي له في كل مرحلة من مراحل عمره اسم من كونه جنيناً إلى وليد فطفل فغلام فيافع فشابّ . . . إلى شيخوخة وكهولة وهرم . .

وانظر إلى أفعاله لها في كل سنّ من عمره فعل يُعبِّر عنه ؛ فهو يحبو ويدرج ويخطر ويدلف ويهدج ويرسف ويختال ويهرول . . إلى أنواع كثيرة تصوّر أنواع السير والسرعة فيه . . وكذلك قل في كل حالة من حالاته كما في تصوير خلوّ البطن من الجوع والسَّغب والطوىٰ والمخمصة . . .

وفي فقه اللغة للثعالبي ومخصَّص ابن سيده وكفاية المتحفظ لابن الأجدابي ما يملأ النفس دهشة وإعجاباً بكثرة ذلك في اللغة .

ولعل من الجدير الإشارة إلى أن في مفردات العربية جانباً آخر تعبّر فيه تلك المفردات بجذورها وأصولها عن الجانب الاجتماعي والقيم الأخلاقية التي يعيش العرب في ظلالها ، ويُحيُونها في حياتهم ، بل يَحيَوْن بها في علاقاتهم ومجتمعاتهم . فكما رأينا العدوان من العَدْو

والتجاوزِ للحدود ، ورأينا الجوار في دفع الظلم ورفع الجَور ، كذلك نرى الصداقة في الصِّدق ، ونرى الصديق عند العرب هو من صدَقك لا مَن صدَّقك ، إنه صديق لك ما دام صادقاً ، وإن الصلة به قائمة على قيمة أخلاقية على حين أنها عند الفرنسيين مثلاً قائمة على علاقة عاطفية هي الحبّ ! إن كلمة (ami) في الفرنسية و(amaur) من مادة واحدة ، والصديق عندهم من تحبّه دون النظر إلى صفته ! إن الصدق في العربية ضدّ الكذب ، وإن الصَّدْق هو الصُّلب المستقيم من الرماح والرجال ، وهو الكامل الجامع للأوصاف المحمودة ، ولذلك لا يوصف عندهم بالصديق إلا صاحب الخُلُق المؤتمَن ، وهم يَعجبون إذا ظهر على غير ما يقتضي الصدق والصداقة ؛ قال شاعرهم (قعنب بن أم صاحب) :

ما بال قومٍ صديقٍ ثم ليس لهم
دين، وليس لهم عقل إذا ائتمنوا

وإذا كانت في الصداقة محبة وصدق مودّة ، فالصديق محبوب لصدقه واستقامته وكمال أخلاقه . والعدوّ مكروه لأنه عدا حقّه وتجاوزه ، والذين

يتجاوزون حقوقهم أولئك هم العادون والمعتدون !

وإذا تركنا المفردات وأحوالها وانتقلنا إلى اللغة في نظمها وأساليبها رأينا في صفحتها صورة صادقة لحياة العرب في عصورهم المختلفة ما بين جاهلية كانت حياتهم فيها بسيطة واضحة ، وبين عصور حضارة عرفوا فيها الحياة الراقية في السياسة والعلوم والثقافة . . .

لقد حكت لغتهم في الجاهلية قصة حياتهم بعيداً عن التكلّف والتعقيد ؛ فكانت جملاً موجزة بسيطة خالية من الإطالة ومن أدوات العطف والوصل والربط ، يوردون اللفظ على قدِّ المعنى ، في كثير من اتّزان الجمل ، واتّساق الألفاظ ، وتتابع الأسجاع . ولعل خطبة قسّ بن ساعدة خير مثال على لغة العرب في جاهليتهم . قال :

« أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، بحار تزخَر ، ونجوم تزهَر ، وضوء وظلام ، وبرّ وآثام ، ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون ؟ أرضُوا بالمُقام فأقاموا ، أم تُركوا هناك فناموا ؟ . . . » أليست في هذه الجمل

الموجزة صورة الأعرابي الذي نظرت عينه إلى ما حوله من آيات الكون بسمائه وأرضه ، وليله ونهاره ، ونظر بفكره إلى قوافل الموتى فرسم بألفاظه الصور التي رأى ، ولم تكن اللغة لتتجاوز في التعبير اللمحة في النظر والخاطرة في الفكر .

وخطب الحجّاج (ت ٩٥هـ) مهدّداً أهل البصرة فقال :

« أيها الناس : مَن أعياه داؤه ، فعندي دواؤه . ومن استطال أجلَه ، فعليَّ أن أعجِّله . ومن ثقل عليه رأسه ، وضعتُ عنه ثِقْلَه . ومن استطال ماضيَ عمره ، قصَّرتُ عليه باقيَه . إنّ للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقُمت سريرتُه ، صحَّتْ عقوبتُه . ومن وضَعه ذنْبُه ، رفعه صَلْبُه . ومن لم تسعْه العافية ، لم تضِق عنه الهَلَكة . ومن سبقته بادرةُ فمِه ، سبق بدنَه بسفك دمه . . . » .

أليست هذه الخطبة لوحة لغوية أخرى ؟ أليست صورة لقائد عسكري يهدّد ويتوعَّد ، بل يصدر أوامر عسكرية مقتضَبة موجزة ، بلا مقدّمات ولا تعليلات ، إنها أوامر وبلاغات لا تكاد تصدر حتى يتسابق السامعون

إلى التنفيذ . إنها اللغة التي لا تترك للسامع فرصة للتفكير ، وكل من فكّر بعدها بفتح فمه ، فقد استعجل بسفك دمه !

ثم تنتقل الأمة بعد مئة سنة أخرى إلى عصر الدولة المستقرّة المنفتحة على العلوم وعلى الترجمة ، فإذا اللغة داخلة مع أصحابها ميادين العلوم ، معبّرة عن الفكر في نضجه وعمقه وتنوّعه ، وعن النفس الإنسانية ، وعن الروح في الفلسفة والتصوّف والمواجد والأحاسيس ، وإذا هي لغة الأدب عقلاً وقلباً وشعوراً ، ولغة الفكر والعلم ترجمة وإبداعاً .

لقد بقيت اللغة العربية في عصورها المختلفة صورة للأمة العربية ، وكانت مصداقاً لقول « هردر » : الأمة تتكلم كما تفكّر ، وتفكّر كما تتكلّم .

وبقيت اللغة العربية الفصيحة وحدها المرآة الواضحة للأمة العربية كلَّ الوضوح ، فكانت لغة ذات روعة وعزّة ، وسيادة ورفعة ، حين كانت الأمة نفسها منيعة عزيزة سيّدة في ديارها . ثم آلت العربية إلى ما آل إليه أمر الأمة الناطقة بها من استخذاء وشعور بالضعف والمهانة والصغار أمام كل دخيل .

لقد هيمن الدخلاء من المستعمرين على بلاد العرب عصوراً طويلة ، ففرّقوا دولتهم دولاً ، وجعلوهم شعوباً ممزّقة في دويلات وأقطار ، فانحسر ظل حضارتهم ، وخبت شمسهم ، وضعفوا فضعفت لغتهم ، ولانت عصبيَّتهم ، وهانوا على أنفسهم فهانوا على أعدائهم ، وهانت عليهم لغتهم ، وفقدت سيادتها في كثير من ديارهم وأقطارهم . ولا سيادة لأمة لا سيادة للغتها في وطنها .

وبعد ، فليقل المتحدّثون عن العربية ما يشاؤون ؛ إنهم يتحدثون عمّا وراء لغتهم من صور نفوسهم وعقولهم ، ويتحدثون عمّا وراء العربية من صورة أمتهم ، فلسانك مرآتك ، والعربية مرآة العرب .

وأما الذين يرون اللغة ـ كما أراها ـ صورة الأمة الناطقة بها ، وصوتها المعبّر عن فكرها وثقافتها وهويّتها ، فإنهم يرون فيها المنظومة الممثلة للعقل الجماعي الذي هو عقل الأمة ، كما يرون فيها معياراً يقيسون بها مدى الوعي العام للأمة ، سواء أكان وعياً اجتماعياً أم قوميّاً . ويرون ربطها بخطط التنمية واجباً وطنياً وقوميّاً ؛ لأنه لا تقدّم ولا إبداع لأمة إلا بلغتها .

إن علينا أن نجعل الأجيال العربية تتقن لغتها الأم ، وأن نمكّنها من السير بها في طريق العلم ، وطريق التقدّم العلمي . إنّنا كلما سهّلنا الطريق إلى اللغة ، ويسّرنا الوصول إلى العلم في التعليم العالي عن طريقها ، هيّأنا للأجيال العربية جوّ التقدّم والإبداع في ميادين العلم ، ووضعناهم في طريق المعرفة والثقافة ، وهي الطريق المؤدية اليوم إلى كنوز هي أغنى ثروات الأمم ، إنها الطريق التي نواكب بها الأمم التي تعدّ اقتصاد المعرفة وكنوزها أجدى من اقتصاد الدولار ، وتعدّ ثمرات العلم أغلى ما تنتجه الحضارة المعاصرة . إن قوة الأمم اليوم تقاس بما في مراكز بحوثها من علم ، لا بما في مصارفها من مال ! وذلك هو ما تمتلئ به خزائن الأمم المتقدّمة المهيمنة ، وذلك هو الذي ما زالت خزائن العرب تفتقر إليه !!

إن على من يريد أن تكون صورة العرب في العالم صورة كريمة محترمة أن ينضمّ إلى دعاة الوعي اللغوي ؛ لنملأ القلوب بحبّ العربية ، ولنفتح العقول على معرفتها ، ولنفتح الطريق لها وبها إلى العلم ، فإذا تمّ الصُّلح في التعليم العالي ، وفي البحث العلمي، بين العربيّة والعلوم، تهيّأت للنابغين من أبناء العرب سبل الإبداع العلمي ، وبذلك تدخل الأمة العربية من جديد

ميدان المشاركة في صنع الحضارة الإنسانية ، وهو ما يعيد الأمة في نظر العالم كلّه إلى ما كانت عليه من كرامة واحترام ، يوم كانت تبدع في العلم ، وتشارك في صنع الحضارة .

وما أشدّ حاجة العالم اليوم إلى حضارة كحضارة أمتنا ، لا يكون التقدّم في ظلها لعلوم تجعل الإنسان سيّداً قوياً مهيمناً ؛ تنسيه سيادته بشريّته ، وتنسيه قوّته إنسانيته ، وتنسيه هيمنته الأخلاق ، وتملأ قلبه كرهاً للآخر وحقداً عليه ! ولكنها الحضارة التي يعمّ خيرها على الإنسانية كلها ، والتي تنظر إلى عباد الله على أنهم سواسية ؛ لا يفرّق بينهم لون ولا جنس ولا دين .

. . إنها الحضارة العربية الإسلامية التي شاركت في صفتها شعوب مختلفة ، وعبّرت عنها اللغة العربية التي قال عنها عمر بن الخطاب : « تعلّموا العربيّة فإنها تثبّت العقل ، وتزيد في المروءة » ، وكانت حضارة ظهرت آثارها في العقول التي أنتجتها وصنعتها ، وفي المروءة التي جعلتها تعمّ بآثارها العالم كلّه ، ولا ينعم بآثارها شعب دون شعب . إنها الحضارة التي كانت عالميّة في رسالتها ، إنسانية في نزعتها ، عربيّة في خطابها .

المحتوى

مقدمة	٥
رسالة من اللغة العربية إلى أبنائها	١٨
اللغة العربية تاريخ وحضارة	٢٨
العربية هوية ونسب	٥٥
مع الهمّ اللغوي	٦٧
اللغة العربية حصن الأمة	٩٣
اللغة مرآة الأمة	١٠٧
« خصائص العربية تحكي خصائص العرب »	
المحتوى	١٢٧

سلسلة « هذه سبيلي » : (دار البشائر ـ دمشق)

ج١ : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ . ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

ج٢ : لا دينَ لمَن لا خُلُق له . « أخلاق دمشق » . ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

ج٣ : ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ . ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

ومن آثار المؤلف اللغوية :

١ ـ نحو وعي لغوي . دمشق . ط١ (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠) ط٤ دار البشائر ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

٢ ـ اللغة العربيّة في التعليم العالي والبحث العلمي : ط٤ دار النفائس ـ بيروت ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م

٣ ـ مقالات في العربيّة . دار البشائر ـ دمشق ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

٤ ـ نظرات وآراء في العربية وعلومها . دار البشائر ـ دمشق ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م